الفصل الثالث

الانسيابية والمرونة فى نظم التعليم والتعلم فى التقاليد العربية الإسلامية

مقدمـــة.

أولا : المبادىء التربوية لحرية التعليم و التعلم فى التقاليد العربية الإسلامية.

ثانيا : الملامح العامة لنظم التعليم و التعلم فـــى التقاليـــد العربية الإسلامية.

ثالثا : نـــظام الحلقـــات التعليمى الاختيارى.

رابعا : أشـكال و مظاهر المرونة بنظام الحلقـات التعليـمى الإختيـــارى.

خامسا: النموذج التطبيقى لنظام الحلقات التعليمى الاختيـــارى فـــى مصر

(التعليـــم فى المسجد الجامعة الأزهـــر).

سادسا: تحليـل مقارن للانسيابيـة فى التعليـــم بين التقاليـد العربيـة الإسلامية والواقـع المصرى الراهن.

مقدمـــة :

جرت العادة فى أغلب البحوث والدراسات التربوية أنه كلما كان الحديث عـــن التطويـــر والابتكار فى نظامنا التعليمى ، لزم التأكيد على ضرورة الاستفادة بما يجرى فى المجتمعـــات الأخـــرى المتقدمة ، وأن تعقد الدراسات المقارنة بيننا وبين تلك المجتمعات ، ولقد مضى وقت الدعوة إلى الأخـــذ السادج والتقليد الأعمى لتلك المجتمعات، وأصبح الباحثون والدارسون أكثر إدراكا للمتغيرات والقوى والعوامل المؤثرة على نظم التعليم .

وهنا يأتى التأكيد على ضرورة الاستفادة من تجارب المجتمعات الأخرى مع إدراك ذكى لمـــا بين تلك المجتمعات من متغيرات، تؤثر على النظام التعليمى وأهدافه ومحتواه وغيرها ، ومن هنا تظـــهر أيضا خطورة التأكيد على أن نتقوقع داخل مجتمعاتنا وألا نستفيد بما فى المجتمعات الأخرى من أمـــور التطوير والتجديد والابتكار فى عالم التربية والتعليم .

إلا أنه يجب لفت النظر إلى أهمية قراءة تراثنا التربوى ومحاولة استلهام تجاربه ومثله العليـــا ، ولنرى كيف استطاع أسلافنا أن يواجهوا مشكلات التربية وأن يقدموا لتلـــك المشـــكلات حلولهـــا المناسبة وأن يصوغوا لأنفسهم ***نظما تربوية وتعليمية مرنة كان عائدها إنسانا جديدا فى عصره*** ، أقـــلم حضارة عالمية مازال القلم يقف إجلالا أمام أعلامها وفلاسفتها وعلمائها وأدبائها ، شـــاعرا بـــالدين الحقيقى لأعلام تلك الحضارة الشامخة .

وفى ظن الباحث أنه إذا كانت الدعوة إلى الانفتاح على تجارب الغير فى عالم التربية والتعليـــم ضرورة قائمة دوما ، فإن أول من نستطيع الاستفادة من تجاربهم هم سلفنا الصالح ، نعم هناك متغيرات تربوية عالمية قد حدثت فى مختلف المجالات ، إلا أن تلك المتغيرات لا يمكن أن تقلل من أهمية دراســـة تراثنا التربوى وبخاصة عند تناول قضية ***الانسيابية والمرونة فى التعليم*** ، وليست الدعوة إلى الاهتمـــام بتراثنا التربوى قراءة ودراسة "بدعوة سلفية فى حقل التربية والتعليم " كما قد يتبادر إلى الذهن بـــل هى فى الحقيقة دعوة إصلاحية تجديدية لتأصيل فكرنا التربوى من جهة ، ولتتواكب من جهة أخـــرى مع الاتجاه العالمى والدولى السائد حاليا والذى يدعو إلى ضرورة الاهتمام بثقافـــة الشـــعوب الخاصـــة ،وعدم دمجها بالكامل فى تيار الثقافات المستوردة .[1]

انطلاقا من هذا كله فإن الدراسة الحالية تحاول فى الفصل الراهن أن تظـــهر بعـــض ***معـــالم الانسيابية والمرونة فى نظم التعليم الديمقراطى الإسلامى والاستفادة منها*** ، وهى كما ستبدو لنـــا لا

---

(١) *تبنى هذا الاتجاه العديد من المؤتمرات المنعقدة فى معظم البلدان العربية والإسلامية ومثيلاتها فى الدول النامية، أنظر أعداد : مجلة الثقافات ، اليونسكو.*

تقل أهمية عما يمكن أن ننقله عن غيرنا من الدول الغربية وغيرها ، بل لعل فى تقدير البحث العلمى تكون ذات أهمية أكثر لأنها تمثل القواعد الثقافية.

ولقد واجه الباحث فى معالجته لهذا الفصل مشكلتين :

= ***المشكلة الأولى*** :

الغموض الكثيف الذى مازال يكتنف معرفتنا بحقائق التربية ونظم التعليم الإسلامية عبر العصور ، والتنوع الكبير فى الآراء والأفكار التربوية والتعليمية التى برزت فى العصور الإسلامية المختلفة ، وتأثر تلك الآراء والأفكار بعوامل عدة من أهمها الزمان والمكان والبيئات الاجتماعية والأهداف التى يرجى تحقيقها والمذهب الفكرى الذى انبثقت عنه هذه الأهداف.[1]

من أجل ذلك فإن تناول معالم الانسيابية والمرونة بنظم التعليم فى التقاليد الإسلامية والعربية يتميز بالعمومية ، حيث لا تقتصر تلك المعالم على فترة زمنية تاريخية معينة وإن كانت تركز على عصور الازدهار الإسلامى ،وتتناول كذلك الملامح العامة دون إبراز الملامح الخاصة باختلاف الزمان والمكان والمفكرين .

= ***و المشكلة الثانية***:

تقتصر الدراسة على أشكال ومظاهر الانسيابية على بعض تلك المظاهر دون محاولة استقصائها الاستقصاء الشامل الكامل ، بل إنها حتى فى تناولها لتلك المظاهر التى تم انتقاؤها لم تتمكن من عرض الشواهد التاريخية وابراز الأدلة الوثائقية وغير الوثائقية.

ومع ذلك فإن عرض المفاهيم التربوية الإسلامية التى تم ترجمتها فى ميدان الواقع العملى ، يمكن أن تشكل خريطة لواقع الانسيابية والمرونة فى نظم التعليم الديمقراطى الإسلامى ، كما يتضح من سرد لبعض الملامح العامة للحياة التعليمية الاختيارية آنذاك كما يلى ،

---

[1] *أنظر : أ- عبد الرحمن النقيب :الفكر التربوى والنفسى فى تراثنا العربى والإسلامى، فى ، **من آفاق البحث فى التربية الإسلامية، سلسلة بحوث فى التربية الإسلامية**، الكتاب الأول، دار الفكر العربى، ١٩٨٣، ص ص ٥-١٢.*

*ب-محمد حلاوى : التربية الإسلامية بين الأصالة والتجديد، فى ، **مؤتمر التربية الإسلامية**، اللجنة العليا للاحتفالات بالقرن الخامس عشر الهجرى بالتعاون مع جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية ببيروت، الفترة ١٠-١٦ جمادى الأول ١٤٠١هـ ١٥-٢١ آذار/مارس ١٩٨١، ص ١.*

*c- Tibawi, A. L.; **Islamic Education, Its traditions and modernization into The Arab national systems**, CRANE, RUSSAKE & CO., Inc, New York, 1972, p x.*

أولا : المبادئ التربوية لحرية التعليم والتعلم فى التقاليد العربية الإسلامية :

إن التراث التربوى العربى الإسلامى بخصوبته وغناه يجدر أن يكون مصدرا لتجديد التربية والتعليم فى الحاضر والمستقبل لما فيه من مبادئ ومفاهيم وخبرات يسعى الفكر التربوى الحديث إلى اعتمادها وتأصيلها- إن لم يكن تطبيقها كما سنرى فى الفصل القادم- فهو تراث يقرر مكانة الإنسان ، وحقه فى الاعتماد على فكره وضميره وجهوده الذاتية فى التعلم ، ويدعوه إلى أن يواصل تربية وتعليم نفسه بصورة متكاملة متوازنة من المهد إلى اللحد، وهو تراث يؤكد على التربية والتعليم باعتبارهما حقا من حقوق الإنسان فى كل زمان ومكان ، ومن ثم فهو يؤكد على حرية المتعلم فى السعى إلى التعلم بإسقاط الحواجز والقيود المادية والاجتماعية.[1]

ولقد كانت المعاهد التربوية الإسلامية — المساجد والمدارس- ميادين تربوية ترجم فيها العلماء المسلمون المفاهيم التربوية بصورة مترابطة فى إطار فكرى واحد ، وكان لمعاهد التعليم الإسلامية العليا الدور الأكبر فى إخراج تلك المفاهيم إلى حيز التطبيق العملى بصفة متبلورة وفى تطوير نظم التعليم التى انتظمت فيه.

وكان من تلك المبادئ والمفاهيم التربوية ما يلى :

١ = الحث على التعلم والتعليم المستمرين مدى الحياة :ووجوبهما واقترانهما بالتكريم وعلو المنزلة ، ووجوب إشاعة العلم وعدم كتمانه — فالعلم واسع لا ينفذ وطلبه موصول لا ينقطع- فالقول بطلب العلم من المهد إلى اللحد كما جاء فى تراثنا الإسلامى تعبير صريح ودعوة واضحة لمبدأ التربية المستمرة تستوعب مفهومه بتمامه وتكاد تصرح بمصطلحها الحديث، ***فالتعليم لا يقتصر على عمر دون عمر ، ولا ينصب على قطاع من المجتمع دون آخر*** ، بل يسعى إلى خلق ما يدعى اليوم باسم ***المجتمع المتعلم المعلم*** بحيث يكون كل فرد فيه متعلما دوما ومعلما دوما أيا كان موقعه وأيا كانت سنه.

٢= مجانية التعلم — العلم للجميع- وتكافؤ الفرص التعليمية وإتاحتها لكل الراغبين :دون تمييز عنصرى أو مذهبى أو طبقى (العلم والمساواة) ، وحيث كان جميع

---

(١) أنظر : أ- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : ***استراتيجية التربية العربية***، مرجع سابق، ص ص ٦١-٦٧.

ب- حسين المومنى : حرية التعليم والتعلم فى التقاليد العربية الإسلامية، فى ، ***ندوة التعلم عن بعد***، منتدى الفكر العربى بالتعاون مع جامعة القدس المفتوحة، عمان ، الأردن، آذار/ مارس ١٩٨٧ ، ص ص ١٦٤-١٦٥.

المسلمين مكلفين بمعرفة الدين وأداء العبادات فقد وجب تعليمهم ، ونشأ من ذلك إلزام التعليم ، سواء أكان فى الكتاب أو المدرسة المسجد ، فلا يحرم أحد منه لفقره .[١]

٣= الأخذ بمبدأ التدريب والتعليم الموزع خير من التدريب الذى يتم مرة واحدة وتكريم الإنسان والعناية الكلية به جسدا وعقلا وروحا ونفسا .... مع التركيز على احترام إرادته الحرة الواعية وعلى احترام دوره فى الإصلاح الاجتماعى مع مراعاة الحاجات الاجتماعية وسنة التغير فى المجتمع .

٤= الأخذ بمبدأ الحرية فى التعليم : فلا تتبع أطر محددة لا من حيث الزمان، ولا من حيث المكان، ولا من حيث المناهج، فلم يكن هناك سن محددة لبدء التعليم ولا الانتهاء منه، وليس هناك قيد أن يحضر المتعلم الكتاب أو أن يبدأ بالمدرسة أو المسجد ، أو أن يعتمد على نفسه كلى الاعتماد فالحرية كاملة ، يدرس ما يشاء ، وكيف يشاء، وعلى يد من يريد من المعلمين ، وبقدر ما يستطيع أن يحصل من العلوم .[٢]

٥= الأخذ بمبدأ التفاوت والفروق الفردية بين بنى الإنسان : فيما يتصل بقدراتهم واستعداداتهم وميولهم وظروفهم البيئية المحيطة ، وفى الوقت نفسه تطبيق مبدأ العدل والمساواة بينهم فيما يتعلق بالحقوق والواجبات وفقا لتلك القدرات لا فرق بين غنى وفقير ، ولا فضل لأسود على أبيض ، او عنصر على عنصر ، فكل فرد بقدر اجتهاده وكل فرد بقدر ذكائه ، يمكنه أن يحصل من أنواع العلوم ما يشاء .[٣]

٦= جعل التكليف فى طلب العلم قائما على القدرة والاستطاعة مع النظرة الواقعية للفطرة البشرية، ومراعاة الميول والحاجات الخاصة بالمتعلمين ، ومراعاة النقائص البشرية وحالات الضعف البشرى ومراعاة مبدأ التباين فى القدرات والاستقلال ، فضلا عن جعل طلبه مبنيا على الرغبة الذاتية والإرادة المشمولة وحرية الاختيار ، بعيدا عن الاكراه والقسر (التعليم الحر ، والتعلم الذاتى).

٧= الأخذ بمبدأ رد الأحوال إلى أهل الكفايات من ذوى الاختصاص .

وقد انتظمت تلك المفاهيم وغيرها من المفاهيم التربوية الإسلامية فى إطار فكرى واحد، انبثق منه نظام التعليم الديمقراطى الإسلامى (الحلقات الاختيارية) ، و الذى كان ترجمة فعلية لتلك المفاهيم، و التى استمدت أصولها ومبادئها وفلسفتها من العقيدة الإسلامية .

---

(١) *أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الإسلام، دراسات فى التربية، دار المعارف ، ١٩٨٠، ص ١٧ .*

(٢) *عبد الرحمن النقيب : الفكر التربوى والنفسى فى تراثنا الإسلامى، مرجع سابق، ص ١٨ .*

(٣) *سعيد إسماعيل على : ديمقراطية التربية الإسلامية، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٤، ص ٤٩ .*

ثانيا : الملامح العامة لنظم التعليم والتعلم فى التقاليد العربية الإسلامية :

لقد كشفت الممارسات الفعلية فى المجتمع الإسلامى عن اقتران الفكر بالعمل فى المفاهيم والمبادئ التربوية السابقة ، شكلت فيما بينها الملامح العامة لنظم التعليم والتعلم فى التقاليد العربية الإسلامية كما يلى :

١=تعدد أمكنة ومؤسسات التعليم :

لقد تعددت أنواع المؤسسات التعليمية ، وازدادت طورا بعد طور ، فكانت حلقات التعليم فى المساجد أول أنواعها، وكانت هذه الحلقات ومجالس الأسواق والقصور وغيرها تشكل أنشطة تربوية لا مدرسية تعمل على تربية المجتمع — كل المجتمع — ولقد تلت المساجد كمعاهد تعليمية ، منازل العلماء الخاصة ، ودور العلم العامة وغيرها من المؤسسات بعضها للصغار كالمكاتب أو الكتاتيب ، وبعضها للكبار كدور الحديث ، والترب التى تحول كثير منها إلى مدارس علم أو مكتبات مطالعة أو مكاتب لتحفيظ القرآن الكريم أو زوايا .[١]

ونتيجة لاحتكاك المسلمين وغيرهم من الأمم والشعوب الأخرى وما عرفوه منهم من ثقافات وما وقفوا عليه من أوجه تعليمية ، فكر البعض فى إقامة شكل آخر لمؤسسة تربوية فيها عناصر الاشتراك مع الشعوب الأخرى حتى يمكن أن تكون حلقة اتصال بين الثقافات فكان بذلك ظهور المدرسة الإسلامية كمؤسسة تعليمية منذ الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى .[٢]

وكانت هيئة المدارس لا تختلف عن هيئة المساجد ثم أصبحت فيما بعد لها طرز معمارية وأشكال إدارية وطرائق تعليمية ووظائف تربوية كونت معها ظاهرة متميزة فى المجتمعات الإسلامية [٣]، كما وجدت مؤسسات أخرى اشتغلت بالعلوم العملية أو التطبيقية كالطب فى المشافى والبيمارستانات، والفلك فى المراصد ، والهندسة فى مشاغل المعمارية أو معلمى الحيل الميكانيكية، والإنشاء فى الدووابن والطبيعة والكيمياء فى معامل التحريبين ، والعسكرية فى ثكنات الجند المحلوبين ،

---

(١) *أحمد شلبى : التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى، جوانب التاريخ والنظم والفلسفة، الكتاب الخامس من سلسلة موسوعة الحضارة الإسلامية، الطبعة الثانية مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٧ ، ص ٥٠ .*

(٢) *سعيد إسماعيل على : معاهد التعليم الإسلامى، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٨ ، ص ص ١٣١-١٣٨ .*

(٣) *محمد قمبر : التربية الإسلامية، مفاهيم، أهداف ، أسس ، طرائق، مؤسسات، فى ، محمود قمبر وآخرون : دراسات فى أصول التربية، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدوحة ، قطر، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م ، ص ٤١١ .*

ولقد كان التعليم يتم فى هذه المؤسسات بأسلوب التلمذة الصناعية ، وبشكل شخصى مباشر بين المعلم وطلابه.[١]

هذا و لم تكن أمكنة التعليم قاصرة على المعاهد والمدارس ذات الصبغة العلمية الأكاديمية ، فوجدت أماكن خاصة قامت بدور تعليمى لا تقل أهمية عن تلك المعاهد مثل حوانيت الوراقين وحلقات الدرس والصالونات الأدبية ، وكلها كانت تكسب نظام التعليم نصيبا من ***المرونة واليسر وتتيح فرص التعلم خارج النظام المدرسى بصورة مستديمة لا تعرف القيود أو الحواجز*** .[٢]

٣- نظام الوقف ومجانية التعليم :

ابتدع المجتمع الإسلامى خلال عصور طويلة نظاما يشجع على التعليم ، ويرفع أعبائه عن عاتق الطلاب هو وقف الضياع والعقار وصرف ريعها على المدارس والكتاتيب ، ثم تطور التعليم من حلقات المساجد إلى المدارس والمعاهد المنظمة حبست عليها الأوقاف لضمان حياتها [٣]، ولقد تعددت الأوقاف وازدادت مواردها بازدهار الحياة الثقافية والاقتصادية للعالم الإسلامى يحبسها الأفراد والجماعات تلقائيا بدوافع دينية من خلال المبادرات الشعبية التلقائية.[٤]

ولقد هيأ نظام الوقف هذا ، فرص التعليم المجانى، فكانت المدارس مفتوحة مجانا أمام جميع الراغبين فى التعليم والعلم ، حبست الأوقاف عليها حتى تعينها على أداء رسالتها ، وتوفير للطلاب فيها بجانب العلم ، المسكن والغذاء والكساء والمعاليم أو المرتبات ، مما جعل التعليم على حظ من الشيوع بين الناس ، يستطيع الفقير أن يحصل منه إذا توافرت له القدرة والإرادة على القدر الذى يحصل عليه الغنى دون أن تقف الفوارق الطبقية أو الإمكانات المادية حائلا بينه وبين ما يريد [٥]،وكان من بين الذين نبغوا رجال فقراء وأبناء العامة الذين ولدوا فى بيوت فقيرة ،[٦] إذ لم يقف الفقر عائقا

---

(١) *محمد مقبل عليمات : التعليم التقنى – المهنى صلته بالتربية الإسلامية، موقع التربية المهنية فى المنهاج التربوى الإسلامى، فى ، مؤتمر : **نحو بناء نظرية تربوية إسلامية**، المعهد العالمى للفكر الإسلامى وجامعة اليرموك، عمان، الأردن، ٢-٥ محرم ١٤١١هـ ٢٤-٢٧ تموز/يوليو ١٩٩٠، تحرير فتحى حسن مكاوى، الجزء الأول ، ص ٤٦٩.*

(٢) *أحمد شلبى : **التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى**، مرجع سابق، ص ص ٦٦ ٦٧.*

(٣) *أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الإسلام**، مرجع سابق، ص ص ١٦-١٧.*

(٤) *عبد السلام المجالى : التعليم العالى فى البلاد العربية، محاضرة فى جامعة إسكسن ، ١٩٧٢ ، ص ٢ .*

(٥) *أنظر : أ- محمد قمبر : **التربية الإسلامية** ، مرجع سابق، ص ٤١٥.*

*ب- عبد الرحمن النقيب : ديمقراطية التعليم فى عصور الإزدهار الإسلامى، دروس مستفادة، **مؤتمر ديمقراطية التعليم فى مصر**، رابطة التربية الحديثة، بالتعاون مع صحيفة الأهرام، ٥/٤/١٩٨٤ ، ص ٧٧.*

(٦) مثل الإمام الشافعى الذى ولد يتيما فلا بيت فقير ، وكذلك الإمام أبو حامد الغزالى وأخوه أحمد ، وغيرهما كثيرون ساروا فى طريق معبد منذ مطلع حياتهم، لايقف الفقر عقبة أمام تقدمهم، ولا حال العوز دون نبوغهم وعبقريتهم.

أمام الراغب فى العلم أو الساعى لارتشاف المعرفة ، ففرص التعليم كانت مكفولة للغنى والفقير على حد سواء.

و بهذا فقد أتاح نظام الوقف على المساجد والمدارس التابعة لها – الذى ارتبط بنظام التعليم الاسلامى الاختيارى – الفرصة لجميع الراغبين فى التعليم والتعلم ، وفتح أبواب العلم للفقراء مما كان يهيئوه من تعليم ومأكل ومشرب ومسكن ومعالجة مجانية ، وإن لم يكن بالمجان فقد كان الأجر زهيدا بحيث يستطيع أداءه جميع الناس، وفقا لما يرغبون بتقديمه طواعية وبما يتناسب مع إمكانياتهم، وهكذا كان تكافؤ الفرص فى العالم الاسلامى مرعيا فى جميع أمكنة ومراحل التعليم ، و لم يكن الفقر قط سبب حرمان من العلم، فلقد تغلب عليه القوم بما بذلوا للموهوبين والأذكياء .

٣= التعليم الحر المفتوح للجميع :

كانت أزواد المعرفة و الثقافة ملقاة فى كل مكان بأمصار الإسلام، و هى حقا كانت مطروحة فى الطرقات معروضة لكل الأيدى، فأبواب المساجد و ما تفرع معها من مؤسسات تربوية قد أصبحت بيوت عامة مفتوحة، تفتح أبوابها للجميع على مصراعيها لكل الواردين، فقد كانت المؤسسة التعليمية مكانا ديمقراطيا، للتعلم إذ كانت أبوابها مفتوحة لكل متعلم ، بغض النظر عن دينه أو سلالته أو لونه أو جنسه (ذكر أو أنثى) أو مركزه الاجتماعى ومثلها المكتبات العامة و دكاكين الوراقين، لا مصاريف تطلب للتعليم، و ***التعليم مجانا من حق الجميع***، و كان لذلك آثار بعيدة المدى إذ أتاح الثقافة لعامة الناس، فنبع منهم شعراء و أطباء و كيميائيون و جغرافيون و فقهاء .[١]

و هكذا تحولت المجتمعات الإسلامية إلى ***بيئات تربوية مفتوحة تفتح أبوابها لكل متعلم أو مثقف***، فيها يعلم الناس بعضهم بعضا، و يتعلم بعضهم من بعض، مما أدى إلى خلق وحدة ثقافية قوامها دين و لغة و آداب تشربها المسلمون فى كل مكان، و تأثر بها غيرهم ممن يعيشون بينهم و فى ديارهم .[٢]

وكانت المدارس و المعاهد بصفة عامة على اتصال بالحياة و الناس، فكان ***الأستاذ يحاضر و الأبواب مفتوحة***[٣]، ليستمع أو يفيد من يشاء من غير طلابه و من الراغبين فى البحث و الهداية، فحلقات المشايخ فى المساجد تتسع لكل طارق وطالب، و كان من نتيجة ذلك كله أن أصبح التعليم و التعلم ميزة المجتمع الإسلامى بوجه عام، و سمة من سماته اللصيقة به، فهو بحق مجتمع العلماء و المتعلمين.

---

(١) *سعيد إسماعيل على : معاهد التعليم الإسلامى ، مرجع سابق ص ص ٢٩، ١٣٠.*

(٢) *منير حمد البياتى : تعليم الكبار فى المجتمع الإسلامى، أسبابه ودوافعه، **تعليم الجماهير**، العدد ١٤ ، السنة ٦، ١٩٧٩م ص ٢٦.*

(٣) *المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، نسخة دار الشعب، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ، الجزء الثانى، ص ٣٨٢*

٤- المنظومة المفتوحة للتعليم:

لعل من أكبر مظاهر ديمقراطية نظم التعليم و التعلم الإسلامية، أنها كانت نظمـــا تعليميـــة تنتمى فى جوهرها إلى ***المنظومات المفتوحة Open Systems*** ، و هى فى العادة من النوع الذى ليس لـــه بداية معلومة أو نهاية محددة، و هى فى نشاطها تتضمن قوى الضبط الداخلي من ذاتها. كما أنها عـــادة ما تكون فى تغير مستمر .[١]

فالتعليم الإبتدائى لم يكن نظاما مغلقا Closed System معلوم البداية محـــدد النهايـــة، و لم يكن محصورا فى مؤسسة تعليمية واحدة، أو من درس محدد، بل كانت تلك المرحلة مثلها مثل المرحلة التالية ***نظاما مفتوحا Open System*** يقبل عليه الطالب عندما يشاء و ينتهى منه عندما يشـــاء، و يشعر أساتذته معه أنه أهل لذلك، و قد يقضى تلك المرحلة فى الكتاب، أو ينتهى منها على يد مؤدب يحضر إليه فى منزله ، وقد تتسع مواد الدراسة وقد تضيق ،وقد تطول مدة الدراسة أو تقصـــر ، كـــل ذلك حسب ظروف الطالب واستعداداته .

ومن ثم فإنه من الخطأ أن تطبق أشكال النظم المغلقة على التعليم الاسلامى، فـــإذا كـــانت طبيعة نظم التعليم الإسلامى من كونها ***تعليما مفتوحا*** ، لذا فمن الخطأ أن يصر الدارسون لهذه النظـــم على وضع مراحل دراسية محددة لها ، ووضع مناهج محددة لكل مرحلة دراسية ، خاصة وأن أدبيـــات التربية الإسلامية، تشير إلى أنه لم تكن توجد تلك التقسيمات العصرية إلى مراحل تعليمية، و لم توجـــد المتطلبات الدراسية لكل مرحلة ، ولكن الطالب كان يقبل على العلم ليأخذ منه قدر اســـتعداده ومـــا يريده له ولـــى أمره فى المستقبل ، فهو إذن ***نظام تعليمى مفتوح من البداية يقـــوم علـــى حريـــة الطالب وحرية أولياء الأمور فى اختيار ما يريدون من دراسات وما يريدون من تعليم*** أعلى أو مجـــرد تعليم أولـــى يكسب الإنسان الشخصية الإسلامية ثم يتجه بعد ذلك إلى حرفة أو مهنة .

٥= المراحل التعليمية المتصلة :

بمحاولة تقسيم التعليم فى التقاليد العربية الإسلامية إلى تعليم إبتدائى فى الكتاتيب وتعليم ثـــانوى فى المدارس وتعليم جامعى فى الحلقات المتخصصة بالمساجد الكبرى والبيمارستانات ومنازل العلمـــاء ، وذلك حتى يتشابه السلم التعليمى آنذاك بالسلم التعليمى الراهن ، فالدراسة الفاحصة لحيـــاة العلمـــاء المسلمين تقدم شواهد عديدة على أن التعليم عند المسلمين لم يعرف تلك التقسيمات الحادة ، ولا تلك الفواصل الدراسية الصارمة ، التى تميز بين طلاب مراحل التعليم فى عصرنا الحديث .[٢]

---

(١) *عبد الرحمن النقيب : **ديمقراطية التعليم فى عصور الازدهار الإسلامى** ، مرجع سابق، ص ٨١.*

(٢) *عبد الرحمن النقيب : نماذج من آراء أساتذة التعليم الأعلى عند المسلمين، **الندوة الأولى لتطوير التعليم الجامعى**، كلية التربية بالمدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية، ٣/١١/١٤٠٩هـ.*

وللتبسيط فقد كان التعليم فى بداية الأمر يتخذ أشكالا ثلاثة : تعليم الأطفال ، تعليم المبتدئين من الكبار ، وأخيرا عقد حلقات العلم للتدريس والمناظرة لذوى المستويات العلمية المتقدمة من الكبار[١]، يدخل الطالب فى مرحلة ما يمكن أن نطلق عليها " مرحلة التعليم الأولى " وإن كانت لا تشير المراجع التربوية متى تنتهى تلك المرحلة لتبدأ مرحلة التعليم الأعلى ، وتدل الشواهد الكثيرة على أنها كانت ***مرحلة مفتوحة البداية مفتوحة النهاية.***[٢]

والمقصود بالتعليم الأعلى آنذاك *Further Education* ، هو ذلك النوع من التعليم الذى كان يناله الطالب بعد أن ينتهى من المرحلة الأولية ممثلة فى تعليم الكتاب أو ما يماثله من تعليم أولى كان يعد الطفل لتعليم أكثر عمقا وتخصصا، وكثيرا ما كان يتاح للراغبين من المتعلمين المبتدئين من الكبار الالتحاق بحلقات التدريس التى تعقد فى المساجد .

وإذا كانت مرحلة التعليم الأولى مرحلة عامة يبدأ بها كل الأطفال ويحصلون قدرا مشتركا من الثقافة العربية والإسلامية ، فإن مرحلة التعليم الأعلى هى مرحلة أكثر تخصصا وتعمقا فى بعض المجالات المحددة والتى يختارها الطالب، من خلال ما عرف : ***بنظام الحلقات التعليمى الاختيارى*** ،[٣] هذا وينظر إلى بعض المساجد الجامعة التى عنيت بعقد حلقات العلم والمناقشة والمناظرات لكبار العلماء والفقهاء والأئمة والمجتهدين من ذوى المستويات العلمية والفقهية الرفيعة وإلى بعض المدارس المتخصصة على أنها معاهد التعليم الأعلى -العالى -مثل الجامع الأزهر.[٤]

أى أن الشكل الثالث من أشكال التعليم ، كان يتمثل فى عقد حلقات المناقشة والمناظرة لذوى المستويات المتقدمة فى المساجد الجامعة ، فهو يقابل فى أيامنا هذه التعليم الثانوى وما يليه من التعليم الجامعى ولقد كانت مرحلة التعليم الأعلى لا تنتهى فى حياة علماء المسلمين حتى بعد حصولهم على إجازات من شيوخهم بل كانت مستمرة فى مجتمع العلماء والمتعلمين مادامت الحياة .

٦= مراعاة التدرج فى الانتقال :

كان يراعى التدرج فى الانتقال من مرحلة لأخرى ومن علم لآخر ، صحيح أنهم لم يضعوا الحدود الفاصلة بين كل مرحلة وأخرى كما هو متبع فى العهد الحاضر ولكنهم عرفوا هذا التطور الطبيعى فاتبعوه كما يلى :

---

(١) حسين المومنى : ***حرية التعليم والتعلم فى التقاليد العربية الإسلامية***، مرجع سابق، ص ١٢٣ .

(2) *Tebawi, A. L.;* ***Islamic Education****, op.cit., pp 43-44.*

(٣) عبد السلام المجالى : ***التعليم العالى فى البلاد العربية***، مرجع سابق، ص ٤ .

(4) *Summerfield, Carol and Devine, Mary Elizabeth (Eds);* ***International Dictionary of University Histories****, F D Publishers, chicago, 1998, p 9.*

أ- التدرج فى الانتقال من مرحلة لأخرى :

- إن التعلم كان مرحلة كانت تبتدئ بالكتاب أو بالمعلمين الخاصين ثم تمر بالجامع ثم بمجالس العلم أو مجالس الأدب ، أى فى مجالس خاصة بدلا من حلقات المساجد والمدارس[١]، فكان طلبة الحديث يبدءون دراستهم بعد الفراغ من المرحلة الابتدائية أى بعد أن يغادروا الكتاب فى سن تقارب إثنى عشر عاما ، وهناك من شيوخ الحديث من قبل طلابا أقل من هذا السن ، وهناك من لم يقبلهم قبل بلوغهم سن العشرين سنة أو أكثر ولكن معدل القبول كان يتراوح بين العاشرة والسادسة عشر .

- وربما كان طلاب اللغة أكبر قليلا إلا أن طلبة الفقه كانوا ــ ولاشك ــ أكبر من هؤلاء سنا ، لأن عليهم أن يجيدوا أولا اللغة العربية والقرآن الكريم والحديث النبوى قبل التصدى لدراسة الفقه ، حيث أن دراسة الفقه لا تكون إلا بعد أن يحصل الطالب على قدر كاف من الحديث . [٢]

ب-التدرج فى تلقين العلوم للمتعلم :

إن تلقين العلوم للمتعلم كان على التدرج شيئا فشيئا ، وقليلا قليلا ، إذ يبتدئ الطالب بأن يأخذ من كل علم من العلوم المحمودة بطرف فينظر فيه نظرا يطلع به على مقصد العلم وغايته ، ثم يختار واحدا من هذه العلوم ليتبحر ، فيه ، على ألا يخوض فى ذلك الموضوع دفعة واحدة بل يراعى الترتيب ويبدأ بالأهم، فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا .

٧= توجيه الطلاب حسب مواهبهم :

عرف المسلمون فكرة توجيه الطلاب على حسب مواهبهم ، وكانت عملية التوجيه هذه تبدأ بعد أن يجتاز التلميذ المرحلة الأولى من التعليم فإما أن يتجه إلى العلم أو إلى حرفة على حسب استعداده وتكوينه إذ ***ليس كل أحد يصلح لتعليم العلوم ، فإذا اتجه إلى العلم ، قصد العلم الذى يقبله طبعه***، وكان على المدرس ألا يدعوا إلى حلقته إلا من كان قادرا على استيعاب ما يجرى فيها،[٣] يجب عليه أن يشخص طبيعة المبتدئ من حيث مقدار الذكاء ، يعلمه على مقدار وسعه ، ولا يكلف الزيادة عن مقداره ، فإذا وجه الطالب أو التحق بحلقة دون توجيه ، ورأى المدرس فى هذه

---

[١] *أنظر: أ-أحمد أمين : ضحى الإسلام، الجزء الثانى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٦٦ .*

ب- خليل طوطح : التربية عند العرب، المطبعة التجارية، القدس ، ١٩٣٥ ، ص ١١ .

(٢)منير الدين أحمد : تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجرى، مستقاة من تاريخ بغداد للخطيب البغادى، ترجمة وتلخيص وتعليق : سامى الصقار، دار المريخ ، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ص ص ٢٨، ٧٤ .

[٣] ما كل من يصلح لتعلم العلم يصلح لجميعها، وليست كل صناعة يرومها الفرد ممكنة له مواتية، لكن ماشاكل طبعه وناسبه.

الحالة أو تلك أن الطالب ينبغي له أن يفارق هذه الحلقة إلى سواها ، فإن المدرس ما كان يتردد فى إبلاغه هذه النتيجة وينصحه بأن يغير الموضوع الذى شغل نفسه به ، ويدرس موضوعا آخر [١]، أى تركه والانتقال إلى غيره مما يرجى فيه فلاحه.

٨= التجول والترحال فى طلب العلم :

منذ أواخر القرن الثانى الهجرى ظهرت ظاهرة جديدة فى ميدان التعليم وهى الرحلة العلمية، فطالب العلم إذا ما اجتاز عامة المراحل التعليمية الموجودة يشد الرحال بغية الحج العلمى و الحج الدينى ، فظهرت فكرة ***كراهية التعليم من الصحف والكتب والرحلة لمقابلة المشايخ والعلماء*** والأخذ عنهم .[٢]

وكان للارتحال والتجوال فى طلب العلم والحكمة والتدقيق العلمى منزلة عظيمة فكانت طرقات الدولة الإسلامية لا تخلو من الجغرافيين والمؤرخين وعلماء الدين يسعون كلهم إلى طلب العلم والحكمة وكان الطلاب يجوبون أطراف البلاد الإسلامية ليقابلوا معلما مشهورا وكان على كل طالب علم يريد أن تعلو مكانته فى بلده أن يسير إلى مكة أو بغداد أو دمشق أ, القاهرة ليستمع فى واحدة منها أو أكثر إلى كبار العلماء .

فقد كان طالب العلم ***ينتقل من مدينة علم إلى إلى مدينة علم*** وكلما سمع بوجود أستاذ مشتهر فى مكان زاره وحضر حلقته وأخذ عنه إجازة فى سماعياته أو نقل من أملائه تصانيفه بعد أن يقابلها عليه رواية ودراية ، فيصير حلقة من سلسلة أسانيده.[٣]

وكل ما كان يبتغيه الطالب الجائل هو الحصول على شهادة فردية من الشيخ أو من الأستاذ الذى حضر عليه وتعلم على يديه تثبت كفايته فيما درس خاصة وأن قيمة الطالب فى نظر الناس تتناسب مع ما قام به من رحلات لطلب العلم ومع عدد المدرسين الذين تلقى عنهم .[٤]

---

(١) *أحمد شلبى: **التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى**، مرجع سابق، ص ص ٣٠٣-٣٠٤ .*

(٢) *كان من الشائع عند المسلمين الرحلة فى طلب العلم، وفضل الارتحال أن الطالب كان يطوف بدول كثيرة ، فيشاهد أحوال الشعوب وتقاليد الناس وعاداتهم واختلاف طبائعهم، ثم يتصل بشيوخ بأعيانهم، يأخذ عنهم ويتلقى العلم عليهم، أنظر: عبد الله فياض: **الإجازات العلمية عند المسلمين**، مطبعة الإرشاد ، بغداد، ١٩٦٧، ص ٨٥.*

(٣) *تعتبر الرحلة من مميزات جهود المسلمين فى طلب العلم، وكان العلماء يشجعون طلابهم عليها، يقصدون الأساتذة الكبار والشيوخ لتلقى العلوم عنهم أينما كانوا، مما أدى إلى استمرار تبادل الأفكار منذ بدء الرحلات العلمية للتحقق من الأحاديث وطلبها ، حتى انتشر مبدأ الرحلة فى طلب العلم إلى ميادين العلوم الأخرى غير الحديث ، أنظر: محمد أبو حسان: تأثير الحضارة العربية الإسلامية فى نشأة الجامعات الأوربية، فى ، مؤتمر : **نحو بناء نظرية تربوية إسلامية معاصرة**، مرجع سابق، ص ٢١٤ .*

(٤) *أحمد شلبى : **التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى**، مرجع سابق، ص ٣٢٧ .*

وكل هذا شجع الطلاب ودفعهم دفعا لتلقى فنون العلم من أى بقاع الأرض ولم تكن هذه الحماسة مقصورة على طلاب العلوم الدينية ولكنها شملت طلاب الدراسات اللغوية و الفلسفة والطب وغيرها، وفيما يلى ستتناول الدراسة الحالية شكل ونظام الحلقات التعليمى الاختيارى ، مثالا لنظم التعليم المرنة فى أبهى صور المرونة والانسياب والتدفق التى سادت آنذاك .

ثالثا : نظام الحلقات التعليمى الاختيارى :

تبلورت فى المسجد الجامع وظيفة من أسمى وأجل الوظائف بعد أن أصبح مثابة لاجتماع علماء التفسير والحديث والفقه واللغة العربية فغدا مركزا للدروس الدينية واللغوية والأدبية تعقد فيه الحلقات الدراسية ، وبرزت الصفة الأساسية للمسجد الجامع بروزا واضحا قويا فى وقت لم تكن قد أنشأت بعد معاهد العلم المخصصة للدراسة فقط .

وأصبح الدرس والتدريس سمة من سمات المسجد الجامع فقد تعارف المسلمون على تسمية الدرس (*بالحلقة)* لأن الطلاب أو الدارسين كانوا يتحلقون حول مدرسهم على هيئة حلقة أو دائرة تضيق أو تتسع تبعا لعددهم ومن هنا عرف نظام التعليم الإسلامى باسم ***نظام الحلقات*** أو ***نظام الحلق الدراسية***[١]،وغالبا ما كانت تعقد الحلقات فى أركان المسجد وزواياه ، الأمر الذى أدى ببعضهم فيما بعد إلى تسميتها ***بالزوايا***.

وبعد أن اتسعت المساجد واستخدمت فى بنائها الأعمدة (السوارى) أصبحت حلقات التدريس تعقد حولها أيضا وحيث كان الأستاذ إذا جلس جعل مجلسه إلى أحد الأعمدة بالمسجد فاستند إليه، وقد يشترك فى العمود الواحد شيخان أو أستاذان يقرأ كل منهما فى وقت ، وأصبحت بعض الأعمدة مميزة بأسماء من يقومون بمهمة التدريس حولها وخاصة إذا كانوا من مشاهير العلماء والأئمة [٢]، ولقد كانت الحلقة الدراسية التى يلتف الطلاب فيها حول أساتذتهم هى الطريقة السائدة فى المساجد.

ويمكن القول أن نظام الحلقات الدراسية الإسلامى مرتبط فى شأنه منذ البداية مع قيام المسجد الجامع ، وإلى أنه هو النظام التعليمى الذى كان متبعا فى الغالب لجميع المستويات التعليمية سواء أكان ذلك فى المساجد أو المدارس التابعة لها أو تلك التى نشأت مستقلة عنها لكن أكثر ما يكون التصاقا بالمساجد الجامعة بالذات ، وبالمستوى التعليمى الخاص بتعليم البالغين فيها،وذلك يفضى بنا إلى القول

---

(١) حسين المومنى : ***حرية التعليم والتعلم فى التقاليد العربية الإسلامية***، مرجع سابق، ص ص ١٢٢، ١٦٦ .

(٢) محمد عبد الرحيم أبو غنيمة : *تطور التعليم الجامعى فى الإسلام*، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة، ١٩٥٣، ص ١١٠ .

بأن النظام التعليمى الجامعى انبثق أول ما انبثق من المسجد الجامع، ومنه إلى المدارس والمعـــاهد ودور العلم المتخصصة الأخرى، وإنه كان من الطبيعى أن تأخذ المساجد الجامعة والمدارس العالية التى أتيحت لها الفرصة فيما بعد كى تدخل ميدان الدراسات الجامعية بمفهومها وقت ذاك، و بهذا النظام المتـــوازن الذى كان معروفا لدى المسلمين حتى قبل قيام تلك المدارس الجامعة بفترة طويلة .

وفيما يلـــى عرض لسمات وخصائص هذا النظام :

١= تنوع وتعدد شكل الحلقات والمجالس التعليمية :

بعض المساجد الجامعة الكبرى التى أخذت بنظام الحلقات الدراسية ،كان لها دور كبـــير فى تبلور هذا النظام وتطويره حتى أصبح نظاما تعليميا متميزا لا يزال له امتداده وأثره حتى أيامنـــا هـــذه وغدت تلك المساجد الجامعة متميزة ومعروفة باتباع ذلك النظام منذ ذلك الحين وحتى فـــترة ليســـت ببعيدة فى التاريخ المعاصر.

ولقد التقت المدارس و الجامعات الإسلامية مع المساجد الجامعة من حيث نظـــام الحلقـــات التعليمية[١] إذا أتبع فى معظمها ***النظام الاختيارى*** ، ***وغدا نظام الحلقات هو قوام الحيـــاة الجامعيـــة والفكرية فى العالم الإسلامى*** ، ولقد تميزت هذه الحلقات بتنوعها، يهرع إليها رجال الفقه والتفســـير والحديث والقراءات والأدب واللغة، ولقد ساد العالم الإسلامى نمطين متقاربين فى تنظيم الدراسة العليـا ، هما نظام الحلقة ونظام المجلس [٢]، كما يلى :

أ- الحلـــقة :

عرفت مرحلة التعليم العالى فى الإسلام نظام الحلقة التى يتحلق فيها الطلاب حول شـيخهم ، إذ يمكن وصفها بأنها صفوف دراسية دائمة ينتظم الطلاب بها فى شكل حلقات دائريـــة أو أنصـــاف دوائر تضيق أو تتسع بحسب أعداد المتعلمين ، وتدور على صف أو صفين أو أكثر من ذلك ، ينقســـم فيها الطلاب إلى نوعين :

١-***عرضيين*** : من جماهير راغبة فى الثقافة ، حضورهم تطوعى أو حر، فمن نظام حلق الدراسة أن يترك بها مكان ليجلس فيه أولئك الذين يحبون أن ينضموا حديثا للحلقـة للاستماع والاستفادة.[٣]

---

(١) *كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من حلق الحلق، وجمع الناس حوله لتلقى العلم، وظلت هذه الطريقة سائدة فى التعليم بالنظم الإسلامية، واستمر التدريس من خلالها حتى بعد إنشاء المدارس.*

(٢) *منير الدين أحمد : **تاريخ التعليم عند المسلمين**، مرجع سابق، ص ٥٣.*

(٣) *أحمد شلبى : **التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى** ، مرجع سابق، ص ٢٩٦ .*

٢- ***نظاميين*** : يتتلمذون على شيخ المادة للإجازة فيها (طلاب العلم) ويحافظون على نظام الحضور والدراسة والتحصيل حتى يجازون من قبل شيخهم.[١]

وطبقا لنظام الحلقات يتحلق الطلاب حول الشيخ ، وإذا كان عددهم كبيرا ، جلس الشيخ على كرسي من الخشب أو الجريد حتى يروه ويسمعوا صوته، وقد يستند إلى سارية أو اسطوانة وربما تبقى هذه الاسطوانة ***وقفا عليه*** مادام يقوم بمهمة التدريس في المسجد ، وفي بعض الأحيان تبقى معروفة باسمه حتى بعد وفاته .

وقد يرتقى إلى المنبر الرئيسى للمسجد الجامع إذا ارتفع عدد الحضور ، حيث كان يتاح للعلماء والكبراء وعامة الناس حضور الحلقات بالاضافة للطلاب وخاصة إذا كان الدرس هاما أو كانت الحلقة مخصصة لمناظرة بين طرفين أو أكثر من العلماء والفقهاء لإثبات أو دحض مفاهيم فقهية دينية أو لغوية أو أدبية جديدة أو قديمة أو كان الشيخ المحاضر عالما مميزا أو زائرا جديدا ، وإذا كانت الحلقة الدراسية تعقد بصورتها المألوفة فإن لكل شيخ عمود من أعمدة المسجد لا يغير ولكل طالب مكان لا يتعداه يعرف يمينه و يساره من زملائه ، حيث كان للحلقة آداب مرعية التزم بها شيوخ العلم وطلابه.[٢]

ب- المجلس :

وهو الشكل الثانى الذى أخذه التعليم العالى ، وتتنوع المجالس فمنها مجلس التدريس كما هو الحال فى مجالس الحديث ومجالس النحو ، وهى تشبه قاعة التدريس التى يلقى فيها دروس هاتين المدتين ، ومنها مجلس المحاضرة والمناظرة ومجالس الشعر التى لا تؤلف صفوفا للتدريس بالمعنى التعليمى ولكنها ذات علاقة مباشرة بالتعليم فضلا عن مجالس الأدب ومجالس الفنون، وبعض مجالس التعليم تلك كانت تسمى ***طاقا*** ، وبعضها عارض والآخر دائم.[٣]

و ***المجالس العارضة*** : فيها يكون لدى الشيخ أو المحدث أحاديث ودروس محددة، فيجلس لروايتها فى مجلس أو مجلسين ، مثل تلك المجالس التى يحضرها العامة لسماع الحديث ،بينما ***المجالس الدائمة*** : فهى تلك التى يعقدها الشيوخ المتخصصون فى أيام معلومة من كل أسبوع، ويحضرها الطلبة ويستمرون على حضورها حتى يفرغ الشيخ من إملاء أحاديثه.[٤]

٣- الصبغة الشمولية للدراسة :

اتسمت الحياة التعليمية التى كانت قائمة فى الجامعات الإسلامية القديمة بالمدارس الجامعة وغيرها من الجوامع الكبرى والمؤسسات التعليمية الموازية بسمات عديدة وملامح متميزة منها أن الدراسة كانت ذات صبغة شمولية متمثلة فى مظاهر وأبعاد مختلفة كما يلى :

---

(١) *أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الإسلام**، مرجع سابق، مرجع سابق، ص ١٦ .*

(٢) *أنظر : أ- حسين المومنى : **حرية التعليم والتعلم فى التقاليد العربية** ، مرجع سابقن ص ص ١٤٣-١٤٤ .*

*ب-محمود قمبر : **التربية الإسلامية**، مرجع سابق، ص ٤٠٩ .*

(٣) *منير الدين أحمد : **تاريخ التعليم عند المسلمين** ، مرجع سابق، ص ص ٥٣-٥٥ .*

(٤) *المرجع السابق: ص ص ٥٥-٦١ .*

أ- شمولية الأجناس والطبقات في الأروقة :

كانت الدراسة إسلامية عالمية ، وكانت الأروقة المخصصة لطلبتها تضم طلابا من مختلف أرجاء العلام الإسلامي ومسماة بأسماء الجهات أو الديار التي يفدون منها ، وكان طلاب الأروقة من مختلف الطبقات والفئات يجدون في رحابها جوا من الإخاء والطمأنينة والراحة النفسية والأمن ، ولم يكن الالتحاق بأي منها حكرا على أحد ، بل كان الطلاب يمثلون جميع طبقات المجتمع الإسلامي فقيرها وغنيها على السواء ، حتى أن ***طريق التعلم أمام الرقيق كان مفتوحا ، كما كان مفتوحا أمام غير المسلمين*** .

ولقد وصفت أروقة المساجد الجامعة بأنها لم تطبق سياسة التمييز العنصري على الطلبة الراغبين في سكناها ، ولم تأخذ بنظام الطبقية ، فكانت تستقبل أبناء الإسلام ولم تؤثر فريقا على آخر بسبب الفروق الاجتماعية أو الاقتصادية، فكانت الديمقراطية بأوسع معانيها، هي التي اتسم بها نظام قبول الطلبة في الأروقة ، حيث لم يكن الالتحاق بها مقيدا بمذهب أو اتجاه أو لون أو عرق، فكانت سياسة ***الباب المفتوح*** التي التزمت بها الأروقة في قبول الطلبة دون عائق عنصري أو طبقي أو لون ، حيث ظهر ميدان المساواة الحقيقي في المسجد الجامع ، وهو في الوقت نفسه ميدان من ميادين التنافس بهدف التفاضل.

ب-شمولية الفئات المشتركة في التعليم :

الشمولية المتصلة بفئات المجتمع وبالأجناس والشعوب المختلفة ، كانت ترجمتها ممثلة بإتاحة فرص التعلم للجميع ودون أيما تمييز بين الطبقات أو الشعوب أو الأجناس ، فالكل سواسية ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى يؤكد ذلك ويبلوره : أن أبواب معاهد التعليم المجاني كانت مفتوحة لجميع الناس ، وكانت العناية بالطلاب ومدرسيهم شمولية ومجانية حيث يتوفر لهم المسكن والطعام والجراية ووسائل النقل وما إلى ذلك ، بل كان الإنفاق عليهم في معظم الأحيان بسخاء .[1]

ج-شمولية المجال المدرسي :

امتدت هذه الصبغة الشمولية أيضا إلى المجال المدرسي إذ لم تكن تقتصر على العلوم الدينية واللغوية والأدبية ، وإن كانت أبرزها وخاصة في المساجد الجامعة ، بل تعدتها لتشمل مختلف المعارف والعلوم التي كانت معروفة آنذاك وفي مختلف الحقول والميادين .

ولقد كانت الدراسة في المؤسسات العلمية الإسلامية غير المساجد الجامعة ، أكثر تنوعا وكانت تشمل بالإضافة لتلك المواد على : علم الهيئة و الفلك و الرياضيات والطب والتنجيم والهندسة

---

(1) حسين المومني : ***حرية التعليم والتعلم في التقاليد العربية الإسلامية***، مرجع سابق، ص ١٥٥ .

والكيمياء والموسيقى والفلسفة وعلم الأرض وعلم النبات والحيوان بالإضافة إلى مهام النقل والترجمة إلى اللغة العربية واللغات الأخرى.[١]

د- إتاحة الفرصة للاختيار :

كان من ثمرات تلك الشمولية وذلك الانتشار والامتداد للمعاهد العلمية والنظام الاختيارى الذى ارتكزت إليه ونهجت به وما اتسم به من شمولية آنفة متعددة الأبعاد ، كان من ثمرات ذلك كله إتاحة حرية الاختيار للطالب من حيث المواد الدراسية والتخصص فى أى حقل من الحقول الدراسية.

ويتضح مما سبق أن هذه الشمولية كانت تمتد ببعد آخر يتمثل فى أنه كان متاحا للطالب أن يدرس ما يشاء من المواد الدراسية ، وأن يتخصص فى أى حقل من حقولها ، وأن يجمع بين أكثر من تخصص ، وأن ينوع معارفه من مختلف حقول المعرفة المتاحة ، وبهذا يمكن القول أن ظل هذه الشمولية كان وارفا بالنسبة للزمان والمكان ومعاهد العلم ومكتباتها والمعلمين ولغة التعلم وحلقته وفئات المجتمع والأجناس والشعوب المختلفة فى الدول الإسلامية .

٣= تعدد أوجه حرية الاختيار التعليمى :

كان نظام التعليم فى المساجد الجامعة أو المدارس التابعة لها يتيح للطالب حرية الاختيار بدون حدود، حيث تتعدد المظاهر المميزة لحرية الاختيار هذه من حرية اختيار المدرس إلى المادة الدراسية والمجال الذى يرغب فيه إلى الموعد الدراسى وعدد الحلقات كما يلى :

أ= حرية اختيار المدرس (الشيخ):

لعل من أهم مميزات نظام الحلقات التعليمى الاختيارى من حيث التطبيق لها مجرد الفكر والنظرية – أن المعلم لا يفرض على الطلاب وإنما هم الذين يختارونه وفى ذلك تحقيق لهدف هام هو : أن الطالب لن يقبل إلا على من يرتاح له ويستفيد منه و بالتالى يوفر العنصر الأساسى فى حسن التعلم وجودة التحصيل، ونمو الشخصية العلمية للطالب ، من خلال جو يسوده الألفة والعلاقة بين المدرس أو الشيخ والطلاب .

ولقد تعددت صور حرية اختيار المدرس من حيث :

- أن الطالب كانت له حرية اختياره وتحديد مدة الاشتغال عليه ،
- عدد الأساتذة الذين ينبغى أو يرغب فى الأخذ عنهم لم يكن محدودا ،
- المدة التى يقضيها مع المدرسين غير محدودة ،

---

(١) *حسين المومنى : حرية التعليم والتعلم فى التقاليد العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ص ١٤٩ - ١٥٠ .*

- إمكانية الجمع بين أكثر من مدرس فى وقت واحد ،حيث كان الطالب يواصل ملازمة شيخ واحد حتى يتم دراسته، و لم تجر العادة أن ينتقل الطالب من شيخ إلى آخر ، ولكن ذلك لم يمنع بعض الطلبة من الجمع بين حضور مجالس شيخين أو أكثر.[١]
- كان العلماء يؤكدون على ضرورة الأخذ عن أكبر عدد ممكن من الشيوخ والمدرسين ، والسفر من أجل لقائهم فى الحواضر الكبرى .

ولقد كان من ثمرات حرية الاختيار المتاحة للطالب فى هذا الشأن إقباله على أخذ العلم عن أكثر الأساتذة تخصصا وعلما وفهما للموضوع الذى يسعى إلى تحصيله والإحاطة به ، محكما فى ذلك ***المعايير المعروفة فى اختيار العلمين*** ، سواء فى ذلك المعايير التربوية أو الاجتماعية أو الخلقية .

ب= حرية اختيار المؤسسة التعليمية :

بعض العلماء وطلاب العلم كانت تشدهم مكانة المسجد الجامع أو المدرسة ، تلك — المكانة الروحية أو العلمية —، فيأتون لنيل مكانة التدريس أو الدراسة فى الحلقات التى تعقد ، أو إقامة صلات علمية وثيقة معها، ويمثل نجاح المدرسة فى الامتداد والتأثير خارج نطاق حدودها كمؤسسات علمية على أصعدة متنوعة : محلية أو إقليمية أو عالمية ، حيث غدت مركز نشاطات اجتماعية عديدة ، وملتقى لمختلف فئات المجتمع والبلاد .

ج= حرية اختيار الموعد المدرسى :

وفقا للمنهج الاختيارى كان يترك للطالب حرية اختيار الموعد الدراسى حيث لا توجد جهة رسمية تتحكم فى التعليم ومواعيد انعقاد الحلقات والمجالس أو المحاضرات ويتمثل ذلك فى مظهرين :

١= حرية اختيار عدد المحاضرات أو الدروس التى تعطى فى فترة زمنية محددة .

٢= بالنسبة لمواعيد انعقاد الحلقات ، كان يتاح للطلاب حرية اختيار أفضل الأوقات ملاءمة لهم ، إذ لهم الدور الأول فى تحديدها فى البداية ، وكذلك تعديلها بعد فترة أو أخرى وفقا للظروف الطارئة لهم، أى إنه كان بوسع الطلبة أن يحددوا أوقات المحاضرات والدروس وعددها ، وإن كان على الطالب أن يختار دروسه بشكل لا تتضارب أوقاتها.

د = حرية اختيار المجال الذى يرغب التخصص فيه :

المنهج الدراسى الذى كان متبعا وخاصة فى مستوى الدراسات المتقدمة فى المساجد أو المدارس ، كان (***المنهج الاختيارى***) و الذى أصبح من أبرز السمات الرئيسية للتعليم فى الإسلام ، و

---

(١) *منير الدين أحمد : تاريخ التعليم عند المسلمين، مرجع سابق، ص ص ٧٥-٧٦ .*

الذى اصطبغ بصبغته وغدا مميزا به ، ومعروفا باسم ***المنهج الاختيارى الإسلامى***، أو ***منهج الحلقات الاختيارى*** ، ووفقا لهذا المنهج كان يترك للطالب حرية اختيار المجال الذى يرغب التخصص فيه [١].

هـ = حرية اختيار المادة :

كان الطالب حرا فى اختيار موضوع دراسته والمدة التى يريد قضاءها فى الطلب [٢]، أى أنه كان يتاح للطالب حرية اختيار المادة الدراسية ، مما كان له الأثر التربوى الكبير من حيث توفر الإيجابية والفاعلية من جانبه فى إقباله على دراسة ما يرغب فيه ، مما يؤدى معه إلى تركيز جهده وحسن تعلمه وفهمه وجودة تحصيله ، بل كان ذلك هو السبيل إلى امتزاج المعلومات التى يحصل عليها طالب العلم بقيمه واتجاهاته وميوله فتكتسب مزيدا من القدرة على التأثير على سلوكه ، وإشاعة الطمأنينة والرضا فى نفسه ، وبث الحيوية والشعور بالتوازن فى ذاته.

و= حرية اختيار الحلقة أو المجلس التعليمى :

كانت الحلقات الدراسية تتعدد فى المادة أو الموضوع الدراسى الواحد ، فكانت تعقد لعدة مرات من قبل الشيخ أو المدرس نفسه أو غيره ، حيث قد تتعدد فى وقت واحد فى المادة الدراسية الواحدة التى يتعدد مدرسوها وذلك فى حالة ارتفاع عدد الطلاب ، ولذا كان يتاح للطالب حرية اختيار الحلقة الدراسية التى يرغب فيها من حيث ، المكان والتوقيت وعدد مرات الانعقاد .

٤= التخصصية والجمع بين التخصصات :

المدرسة فنيا هى مكان لتدريس عدد معين من الطلاب على أيدى أساتذة متخصصين فى مواد دراسية معينة ذات مستوى معين ، وهى بهذا التعريف ذات اختصاص ومدرسة اختصاصية ، لها منهاج محدد والدراسة فيها منظمة ومنتظمة،[٣] ولقد تعددت مظاهر التخصصية وإمكانية الجمع بين التخصصات كما يلى:

أ= الأخذ بمبدأ التخصص العلمى و التربوى:

الأقرب إلى الواقع التاريخى لتطور الثقافة الإسلامية أن تنسب تعدد المناهج الدراسية إلى ازدهار العلوم و المعارف الإسلامية، و ما اقترن بذلك من ضرورة الأخذ بمبدأ التخصص العلمى و التربوى

---

(١) *إن حرية التقاليد الأكاديمية والحرية الفكرية التى كان معمولا بها ، هى التى أنتجت العديد من المذاهب والحركات مثل حركة المعتزلة وإخوان الصفا وغيرها.*

(٢) *منير الدين أحمد : **تاريخ التعليم عند المسلمين**، مرجع سابق، ص ٧٨ .*

(٣) *سعيد إسماعيل على : **معاهد التعليم الإسلامى**، مرجع سابق، ص ص ١٢٨-١٢٩ .*

خاصة و أنه قد وصلت الثقافة الإسلامية إلى قدر من تعدد العلوم و المعارف، بحيث أصبح من المحـــال أن يلم الطالب بكل هذه المعلومات والمعارف، و أصبح من الضرورى أن يتخصص الطالب فى فرع أو أكثر من فروع العلم الإسلامى.

و من هنا ظهرت الاتجاهات و المدارس التربوية المختلفة، فهناك الاتجاه الفقهى فى التربيـــة ، وهناك الاتجاه السلفى والاتجاه الصوفى والاتجاه الأدبى والاتجاه المهنى والفنى .....، وطبيعى أن يختلـف إعداد الأديب عن إعداد الطبيب عن إعداد الفقيه ....إلخ [١]،ولقد أعطت تصـــانيف العلـــوم عنـــد المسلمين صورة عن تعدد العلوم لطلاب التعليم الأعلى ، أكدت لهم أن بحور العلم واسعة وعميقـــة ، وإن كانت فى الوقت نفسه أحد حوافز الأساتذة أنفسهم على التعمق فى العلم ، خاصة وأنها حـــددت لكل فرع من فروع المعرفة أهم مصادره ومراجعة الأمهات ، وبذلك يعرف كل إنسان قدره من العلـم ولا يتساوى من يقرأ اللباب مع من يكتفى بالقشور.[٢]

ب= التخصصية وإمكانية الجمع بين التخصصات فى المدارس :

بعد ازدهار العلوم وتنوعها وتزايدها ، أسس الخلفاء أكاديميات متخصصة لتعنى بنقل كثـــير من العلوم المتصلة وغير المتصلة بالدين من المساجد إليها وقد تمثل بقيامها نشوء (***المدارس المخصصـــة للدراسة***) فقط فى الدولة الإسلامية وتنوعت هذه المدارس فكان منها ما هو خاص بتدريس الحديـــث ومنها ما هو خاص بتدريس الفقه ،وتخصص معظمها لتدريس مذهب واحد أو الجمع بـــين مذهبـــين وغيرها من المذاهب الأربعة [٣]، ولقد خصصت كل مدرسة لمذهب أو أكثر من مذاهب أهل الســـنة وفق ما يحدده مؤسس المدرسة ومنشئها ، أما أكثر المدارس فكانت مدارس فقهية أحادية ، متخصصـــة فى تدريس الفقه على مذهب واحد — شافعى أو حنفى أو حنبلى أو مالكى -، وقد تكون ثنائيـــة إذا درست مذهبين أو ثلاثية أو رباعية، وأحيانا درس بعضها بجانب الفقه ، النحو واللغة ، وقليـــل مـــن المدارس بنيت خصيصا لتكون مدارس طبية كالمدرسة الباتيلينيـــة بـــالبصرة ، والمدرســـة الرحبيـــة بدمشق.[٤]

---

(١) *عبد الرحمن النقيب : **قضايا ومناقشات حول التعليم الابتدائى عند المسلمين**، بحوث فى التربية الإسلامية، الكتاب الثانى، دار الفكر العربى، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ ، ص ٣٩ .*

(٢) *المرجع السابق : ص ٢١٧ .*

(٣) *مثل مدارس نظام الملك ومدارس نور الدين زنكى ومدارس العهد الأيوبى والمدرسة النورية الكبرى ، فضلا عن مدارس الطب ، أنظر : أحمد شلبى : **التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى** ، مرجع سابق، ص ص ١٢١، ١٢٩ .*

(٤) *مثل المدرسة النظامية التى كانت وقفا على أصحاب المذهب الشافعى، بينما مدرسة الخليفة المنتصر بالله كانت وقفا على مذاهب أهل السنة الأربعة، أنظر :*

*أ- سعيد عبد الفتاح عاشور : **العلم بين المدرسة والمسجد**، سلسلة تاريخ المصريين، الكتاب رقم ٥١ .*

*ب- محمود قمبر : **التربية فى الإسلام**، ص ٤١٣ .*

ج- إمكانية الجمع بين التخصصات بالنسبة للطلاب و معلميهم:

كان معنى التخصص فى المدارس أن مذهبا واحد يكون هو تخصص الدراسة بالمدرسة، بل إن المدرسة تنشأ من أجله، و مع ذلك فلا مانع من تدريس مواد أخرى،فكانت المدرسة التى تنشأ للشافعية مثلا يدرس فيها كثير من ألوان الثقافة الإسلامية الأخرى غير الفقه، و ذلك للتلاميذ الشافعية و هكذا .

وغالبا ما كان لكل مدرسة شيخ أو مدرس واحد يعلم المادة التى شارط عليها، الواقف أو الناظر الذى يتولى الإشراف على المدرسة، و قد يتجاوز أحيانا هذا الشرط فيدرس المواد الأخرى- ما تسمح به كفاءته و رغبات طلابه، فقد كان للشيخ المعلم حريّة مهنية ما دام ملتزما بالأصول المرعية و القيم الخلقية، و للطلاب ***حرية تعليمية تمتد إلى أكثر من اتجاه*** متمثلا ذلك فى :

- دراسة الطالب لما يشاء.
- التخصص المرغوب فيه.
- الجمع بين أكثر من تخصص دراسى و إتاحة فرص التنوع للمعارف، فنظم التعليم بالمعاهد و المدارس الإسلامية لم تفصل بين المواد الإنسانية و العملية، أو النظرية و العملية، و لم يكن هناك عالم دين مثلا يجعل العلوم العقلية جهلا كاملا، أو عالم طب أو فلسفة يجهل العلوم الشرعية جهلا كاملا.(١)

و من هنا عرف الكثيرون من علماء المسلمين – سواء أكانوا خريجى تلك المعاهد الإسلامية أو مدرسين فيها – ***بسعة المعرفة و الثقافة و النبوغ فى عدة مجالات معرفية***، حيث كان الواحد منهم ذا شهرة علمية و عطاء معرفى شامل يدل على أنه يجمع بين عدة تخصصات و لدرجة قد تصل إلى حد الإبداع و التفوق، فكم من عالم منهم كان طبيبا و فقيها و فيلسوفا و شاعرا و مؤرخا و غير ذلك فى آن واحد، و له مؤلفاته و معطياته الكثيرة لكى تشهد بذلك و تدل على قدرته ونبوغه.

د = الجمع بين التخصصات و الإلمام المعرفى بالنسبة للعلماء:

كان من ثمرات الانتشار و الامتداد للمعاهد العلمية و النظام الاختيارى و ما أتاحه من يسر فى تنقل المتعلمين، و ما رافقه من مجانية التعليم، و ما اتسم به من شمولية، تخرج نماذج فريدة من العلماء المسلمين ربما لم يشهد تاريخ بنى الإنسان مثيلا لها، و ذلك أن من الممكن وصفها بأنها كانت نماذج من المؤسسات العلمية المتحركة و المتنوعة فى آن واحد.إذ تميز الكثير من علماء المسلمين بالإلمام المعرفى و سعة الإطلاع و غزارة العلم فى عدة ميادين علمية، وكان الواحد منهم يجمع بين علوم عديدة و بكفاءة عالية توحى بإلمامه فى كل حقل من حقولها لدرجة التخصص و الاحتراف.(٢)

---

(١) *أنظر : أ- عبد الرحمن النقيب : من آفاق البحث العلمى فى التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٨ .*

*ب- Tibawi, A. L.; **Islamic Education**, op.cit., p p 30,93,142.*

(٢) *محمد عبد العليم مرسى : **ميسرات البحث العلمى عند المسلمين**، إدارة الثقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٨هـ.*

و لم يكتف أساتذة التعليم و طلابه بالنظرة التخصصية الضيقة فى إعدادهم العلمى، و التى تكتفى بالتخصص فى الموضوع الواحد أو الفرع الواحد دون الاهتمام بالقراءة فى غيره من العلوم و المعارف الأخرى[١]. فرغم اشتهار أحدهم بالفقه و الأدب أو الطب أو الفلسفة أو الكيمياء أو غيره، إلا أنه يندر من بينهم من قصر اهتمامه على العلم الذى اشتهر به وحده، بل دائما ما اتسعت دائرة الاهتمام العلمى لتشمل على دراسات مصاحبة فى الطبيعة و السياسة و الأخلاق و الفلك--- إلخ.[٢]

٥= تعدد أهداف التعليم و التعلم :

تعددت أهداف الطلاب والدارسين من العلم لمعرفة الله، إلى العلم للفقه فى الدين، إلى العلم للمحافظة على الدين، إلى العلم للعلم، و كذلك العلم لتنمية العلم، و العلم للعمل، و العلم للنشر و التثقيف، و لقد اختلفت هذه الأهداف من الطلبة إلى العلماء كما يلى:

أ= أهداف العلم بالنسبة للطلاب:

إن هدف الطلبة من التعليم، كان بالدرجة الأولى " ***هدفا روحيا*** " متمثلا ذلك فى "التعليم من أجل العلم نفسه "، و كان ذلك هو الحمى التى أصابت المسلمين بشكل منقطع النظير لا يشبهه الحال فى أى مكان آخر فى العالم حيث:

- أن الطالب العارض لم يكن يستهدف من حضوره مجالس العلماء أية شهرة أو أى كسب مادى، لأن ما كان يتعلمه فيها لا يؤهله لشىء من ذلك قط.
- أما الطالب المنتظم فإن فرص الكسب من علمه هى إمامه محددة، خصوصا إذا كان من طلبة الحديث أو علم الكلام، غير أن دراسة الفقه و اللغة العربية و القراءات، ربما

---

(١) *تلك المعرفة التخصصية الضيقة التى أنتجت لنا العالم المتخصص ذو البعد الواحد — الاتجاهات الراهنة تتجه نحو الجمع بين التخصصات.*

(٢) *بالقراءة فى تراجم العلماء المسلمين على اختلاف ما اشتهروا به من تخصصات، تؤكد أنهم كانوا من أصحاب التخصص الواسع، ويستدل على ذلك من غزارة الإنتاج العلمى والفكرى ، كما تشر الأمثلة التالية:*

- *يمثل أبو الريحان **محمد بن أحمد البيرونى** العالم الإسلامى فى أحسن صورة له ، فقد كان فيلسوفا ومؤرخا ورحالة وجغرافيا ولغويا ورياضيا وفلكيا وشاعرا وعالما فى الطبيعيات، وكانت له مؤلفات كبيرة وبحوث عظيمة مبتكرة فى كل ميدان وكانت عنايته تشمل كل العلوم.*
- *عند القراءة عن عالم مثل **الإمام الغزالى** يلاحظ امتزاج الشرعية بالثقافة العقلية، وعندما نقرأ ثقافة فيلسوف وطبيب مثل **بن سينا** نجد نفس الشئ، العديد من الكتابات لكل منهما شملت معظم فروع المعرفة :*
- *أنظر : عبد الرحمن النقيب : الآراء التربوية فى كتابات بن سينا، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية- جامعة عين شمس، ١٩٦٩، ص ص ١٤٧-١٦٣.*

أتاحت لصاحبها فرصة الحصول على عمل من الأعمال أو الوظـــائف، كالمحتســـب أو الخطيب أو القاضى ، لكن أكثرية الطلاب كانت تريد العلم لذاته و ليس لأى غـــرض آخر.[١]

ب= أهداف العلم بالنسبة للعلماء:

اختلفت الأهداف الخاصة فى موضع التفصيلات الذاتية للعلماء فى طلب العلم و منها:

١= العلم لتنمية القدرات الذاتية :

وجد كثير من العلماء فى دراستهم –لاختيارات من العوم أو الفنون – رياضـــات تدريبيـــة تنمى ملكاتهم أو قدراتهم التى يريدون تنميتها لأهميتها الخاصة عندهم، و لقد سخروا أوقاتهم للعلـــم فى عزلة عن الناس و مع الكتب و تفاخروا بكثرة ما يقرءون منها [٢].

وكان هدف ذلك، الحصول على قيم تشبع حاجة سيكولوجية أو اجتماعية عند العـــالم، و هذا الدخل النفسى يقدره العلماء الذين لا ينقصهم المال، و إنما ينقصهم شرف العلم الذى لا يمكـــن لهم فى أوساط الناس، و يحيطهم بهالة من الإكبار و التقدير فى المجتمع، و يحقق لهم الزعامة الروحيـــة و التى ترتفع فوق كل زمن.

٢= العلم لنيل مراتب و ظيفية:

على الرغم من وجود قيم مطلقة و مثل عليا كانت تحرك العلماء المخلصين لعلمهم و دينـهم من أجل المعرفة و تنميتها، فقد كانت هناك دوافع أخرى مادية و أدبية لها تأثير كبير فى طلب العلـــم، فالعلماء بشر و يقدرون النجاح فى الحياة و الرفعة بين الناس، لذا نجد أن بعضهم لم يطلب العلـــم فى بداية الطلب إلا تحت ضغط الحاجة و بدافع مادى محض.

إن نسبة من العلماء أقبلوا على أنواع مختلفة من العلوم بهدف الحصول على مراكز و ظيفيـــة تحقق لهم دخلا ماديا مغريا، فالوظائف العليا ذات التقدير الأدبى و المادى فى المجتمع يكن الوصول إليها ممكنا إلا بمصعد العلم و التعلم ،و إن كان قد ندد كثير من الورعين بسوء المقاصد الوظيفيـــة لطلـــب العلم.[٣]

---

(١) *الحافظ أبى بكر أحمد بن على بن الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد، أو مدينة السلام، طبعة القاهرة- بغداد، ١٩٣١، الجزء ٦ ، ص ٣٢٠.*

(٢) *محمود قمبر : التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٦٥.*

(٣) *المرجع السابق : ص ص ٣٧٠-١٧١.*

٣-.طلب العلم لذات العلم :

إذا كان هناك علماء سعوا إلى العلم من أجل تنمية القدرات الذاتية، أو لتحقيق مراتب وظيفية، فإن علماء آخرين سعوا إلى العلم و قصدهم الأول هو العلم لذاته، فقد كان شعار " العلم للعلم" شعار الخاصة من العلماء و المثقفين الذين قدروا القيمة المطلقة أو المثالية للعلم .[١]

ومما سبق يتضح أن نظام التعليم الإسلامى الذى يقوم على حرية الطالب فى طلب العلم دون تقييده بمراحل وسنوات دراسية محددة ، وحريته فى التنقل والرحلة فى طلب العلم ، يضاف إلى ذلك التسهيلات المادية والمعنوية التى توفرت لطلاب العلم فى عصور الازدهار الإسلامى ، كان يقوم أيضا على حب العلم وتقديسه وطلبه لذاته.

٦= تعدد وتنوع الإجازات وسبل منحها :

إن نظام الحلقات التعليمى الإختيارى لم يعتمد على الامتحانات ذلك الشبح الذى يطارد الطلاب فى كل زمان ومكان ، بل اعتمد على ***إجازة العلم لتلميذه*** ، وتمكن الطالب من نفسه وقدرته على مواجهة أسئلة غيره من الطلاب والعلماء .[٢]

وتسمى الشهادات والدرجات العلمية التى كانت تصدر عن المدارس العالية الإسلامية والمساجد الجامعة (***الإجازات***)، وكان يطلق على الشخص الذى يظفر بالإجازة العلمية(***المجاز***)، والإجازة فى أبسط تعريف لها هى : " ***السماح بنقل العلم إلى الآخرين*** "[٣]، ويشترط لصحة الإجازة أن يكون ***المجيز عالما*** بما يجيز به ، ثقة فى دينه وروايته ، معروفا بالعلم ، وأن يكون ***المستجيز*** من أهل العم ، متسما بسمته حتى لا يوضع العلم إلا عند أهله.[٤]

أ= قيمة الإجازة :

إذا ما انتهى الطالب من دراسة مادة ما أو كتاب ما ، منحه أستاذه إما إجازة تعطيه الحق فى الانتقال إلى مستوى أعلى ، أو إجازة تعطيه حق تدريس المادة ، وكان للإجازات قيمة علمية حيث كانت سلاحا لمن يحصل عليها ، يخوض بها معترك الحياة ، وكانت تشتمل على تنويه بمقدرة الطالب العلمية وفضائله الخلقية ، وقد تكون مميزة بالإسهاب والإضافة أو قصيرة موجزة .

---

(١) *محمد عبد العليم مرسى : **ميسرات البحث العلمى عند المسلمين**، مرجع سابق، ص ٢٦ .*

(٢) *عبد الرحمن النقيب : **من آفاق البحث العلمى فى التربية الإسلامية**، مرجع سابق، ص ١٨ .*

(٣) *عبد الله فياض : **الإجازات العلمية عند المسلمين**، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٧، ص ١٥ .*

(٤) *أحمد شلبى : **التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى**، مرجع سابق، ص ٢٦٩ .*

وكان للإجازات التى تصدر عن كبار العلماء سواء كان هؤلاء مقيمون فى المساجد الجامعة أو المدارس المتخصصة أو غير مقيمين فيها قيمة أدبية كبيرة ، فقد كان الظفر بها من عالم مميز ذى شهرة يسعد شرفا كبيرا يسعى إليه طلاب العلم ، بل وربما علماء آخرون لهم مكانتهم وشهرتهم أيضا،[١] هذا ***وتتعدد أوجه المرونة من حيث المدة اللازمة للحصول عليها، وكيفية إصدارها، وأنواعها*** كما يلى :

أ- مرونة المدة اللازمة للحصول على الإجازة :

لم تكن هناك فترة زمنية محددة للحصول على الإجازة الدراسية لمادة ما أو بإجازة تدريسها ، بل كان طول أو قصر مدة الحصول عليها يعتمد على قدرات الطالب واستعداداته وظروفه المعيشية، أى المرونة من حيث الوقت تبعا للفروق الفردية والظروف الشخصية ، ومن ثم حق التقدم للحصول على الإجازة فى أى وقت يشاء الطالب.

ب- بساطة كيفية إصدار الإجازة :

اقترنت الإجازات العلمية فى البداية بعلم الحديث ، وكان للشيخ معيد أو أكثر ، وهو الذى يقوم بإصدار شهادة لطلبته تسمى بالإجازة ، يشهد بمقتضاها أن طالبا من طلابه درس عليه كتابا معينا وأنه أصبح أهلا لتدريسه، وعلى غرار ما كان يفعل الشيوخ والعلماء فى المساجد الجامعة والمدارس التابعة لها ، كان المدرسون فى المدارس هم الذين يقومون بإصدار الإجازات لطلابهم ، مما يشير معه إلى أن الإجازة كانت تصدر عن المعلم لا عن المدرسة أو المسجد .

ج- تعدد أنواع الإجازات :

كانت بعض المساجد الجامعة العريقة ذات الشهرة كالأزهر والقيروان تصدر ثلاثة أنواع من الإجازات:

١ -إجازة بالفتيا والتدريس :

وكانت تعطى للطالب الذى وصل إلى مستوى علمى يؤهله لإصدار الفتاوى والتدريس ، فيأذن له شيخه بمقتضى هذه الإجازة فى أن يفتى وأن يدرس مادة معينة أو مذهبا فقهيا معينا والإفتاء به ، وكان يمنحها العلماء للطلاب المتقدمين إليهم أو يمنحها الأستاذ أو العالم فى مادة معينة أو كتاب معين متى أتم الطالب دراسة هذه المادة أو حفظ هذا الكتاب بحيث يكون قادرا على تدريس ما حفظ بدوره إلى غيره من الطلاب .[٢]

---

(١) حسين المومنى : ***حرية التعليم والتعلم فى التقاليد العربية الإسلامية***، مرجع سابق، ص ١٢٩ .

(٢) أنظر : أ- منير الدين أحمد : ***تاريخ التعليم عند المسلمين***، مرجع سابق، ص ٦١ .

ب- أحمد بن على الخطيب : ***كتاب الكفاية فى علم الرواية***، حيدر آباد، ١٣٥٧هـ ١٩٣٨ .

ج- سيدة إسماعيل الكاشف : ***الجامع الأزهر ودوره فى نشر الثقافة العربية*** ، سلسلة تاريخ المصريين ، الكتاب رقم ٥١، ١٩٩٢، ص ٧٢.

٢ -إجازة بعراضة الكتب :

وتصدر للطالب إذا أحاط بمرجع أو كتاب لغيره أو أقام بتأليفه هو فى الفقـــه أو النحـــو أو البلاغة أو الأدب أو غير ذلك ثم طلب عرضه على هيئة المشايخ المشرفة فى المسجد الجـــامع لانتـــداب أحد كبار العلماء المتخصصين فى المواد التى يتناولها الكتاب لمناقشته فيها والوقوف على مدى إمامـــه وتفهمه للمادة العلمية التى يشتمل عليها الكتاب ومدى صحتها ، والوثوق بما فى حالة قيام الطـــالب بتأليفها وجمعها.[١]

وتتضمن مثل هذه الإجازة عرضا بأسماء الكتب التى قرأها الطالب على شيخه للتنويه بمـــدى إلمامه وإحاطته بها ، والتى قد تكون من تأليف الشيخ الذى تصدّر عنه الإجازة أو من تأليف غـــيره ، وغالبا ما كانت هذه الشهادة تكتب على الكتاب وتسمى مثل هذه بالإجازة الخاصة تمييزا لهـــا عـــن الإجازة العامة والتى تخول لحاملها حق تدريس جميع الكتب التى أملاها المدرس وقرأها الطالب عليه .

٣- إجازة بالمرويات على الاستدعاءات:

وهى إجازة تصدر عن أحد علماء المسجد الجامع ، ويكون فى العادة من علماء الصـــف الأول ذائعى الصيت إلى عالم يقيم فى بلد إسلامى آخر، ولكون المسجد الجامع ملما بالإنتاج العلمى للعـــالم طالب الإجازة ، ومطمئنا إلى ارتفاع مستواه فى مواد تخصصه ، وأنه صرف حياته فى تحصيـــل العلـــم وعلى حظ موفور من الخلق الطيب والسمعة العلمية، ***وكانت هذه الإجازة على صورتين*** :

أ- الإجازة بالمراسلة :

لا تمنح هذه الشهادة إلا بناء على ***"طلب"*** يرسله ***"العالم طالب الإجازة "*** إلى ***أحد علمـــاء المسجد الجامعة*** مشفوعا بنسخ ونماذج من مؤلفاته ومجهوداته وشهاداته وتزكية بسيرته وقدرتـــه ممـــن عرفوه من - العلماء — وممن تتلمذ على أيديهم أو تتلمذوا على يده ,اصبحـــوا مـــن ذوى الشـــهرة والصيت الذائع، أى تصدر هذه الإجازة بعد أن تتوفر ***"للعالم الذى يصدرها "*** المعرفة الدقيقـــة عـــن جوانب حياة العالم الذى يطلبها والذى يقيم بعيدا فى بلد آخر .

ب = الإجازة العلمية الجماعية :

مما يذكر أن ابن حجر العسقلانى كان قد طلب إلى ابن خلدون أثناء اشتغاله بـــالتدريس فى الأزهر أن يصدر له ولجماعة من زملائه إجازة علمية جماعية فاستجاب لهم ابن خلـــدون [٢]، وكـــان إصدار مثل هذه الإجازة يستهدف توفير الجهد والمال والوقت الذى يحتاج إليه الطالب فى وقت كانت فيه المواصلات متخلفة وشاقة ، وقد يكون هو طاعنا فى السن أو لا تسمح له ظروفه أو مشاغل الحيـــاة بالارتحال، وتعد مثل هذه الإجازات بمثابة شهادة فخرية تصدر عن عالم إلى زملاء له —عن اعـــتراف وتقدير علمى وأدبى متبادل ، وهذا ولقد عرف القلقشندى هذه الإجازات وأورد صورا من نصـــوص هذه الإجازات.[٣]

---

(١) حسين المومنى : ***حرية التعليم والتعلم فى التقاليد العربية الإسلامية***، مرجع سابق، ص ص ١٤٦-١٤٧ .

(٢) *المرجع السابق : ص ١٤٧ .*

(٣) *القلقشندى : **صبح الأعشى** ، الجزء ١٤ ، ص ص ٣٢٢-٣٢٥ .*

وبالإضافة إلى ما سبق هناك *إجازات فى المجالات العلمية التطبيقية* مثل *الإجازة بممارسة مهنة الطب* ، *إذ* لبعض العلوم كالطب خطورة عظيمة ، ولذلك نجد أنه منذ عهد مبكر اشترط على من يرغب فى الاشتغال بهذه المهنة ، أن يجتاز امتحانا وينال شهادة مكتوبة تحدد له الأمراض التى يمكن أن يتصدى لعلاجها.[١]

٧= الأهلية والجدارة للتدريس :

بالنسبة للأشخاص الذين كان يحق لهم الجلوس للتعليم ، فقد كان هذا الحق مكفولا لكل شخص يجد فى نفسه القدرة ة والكفاءة على القيام به ، إذ كانت الفرصة متاحة له ليمارس التعليم ، و لم يشترط وجود درجة علمية أو شهادة أكاديمية فيمن يتصدى للتعليم ، وكل الذى كان يطلب ممن يتصدى للتعليم هو أن يبرهن فى أول مجلس له على كفاءته أمام من يحضر مجلسه ذاك من العلماء والمتعلمين، فإذا نجح كان له أن يستمر فى التدريس (٢)، واختلفت سبل تحقيق ذلك كما يلى :

أ- المجالس الاختيارية والأهلية للتدريس :

كان بوسع العلماء أن يعقدوا مجالس الدرس وعليهم أن يبرهنوا فى الجلسة الأولى - لسامعيهم على تمتعهم بالكفاءة المطلوبة ، وكان الحاضرون عادة يمتحنوهم بتوجيه الأسئلة المعقدة، حيث كان الشيخ أو العالم إذا جلس إلى العمود وشرح درسه *يرشقه الطلاب بشآبيب المسائل من كل جانب*، وكانت تدفع إليه بالعديد من *الرقاع* ، فيجمعها جملة فى يديه ، ثم يجاوب على كل واحدة منها على حدة ، إلى أن يفرغ منها جميعا، وكان فى ذلك محكا خطيرا ، فمن سيقبل عليه الطلاب ستثبت أحقيته بالتعليم وجدارته بالتدريس ، ومن ثم فلا يستطيع أن يثبت فى الميدان المعلمون الضعفاء علما والأدنى خلقا.[٢]

بل إن الطلبة كانوا يحاولون اختبار شيوخهم من حيث التزامهم بالأمانة ومدى تقدمهم فى العلم وإن غلطة واحدة قد تؤدى بمكانة الأستاذ إلى غير رجعة ، وكتب التاريخ ملأى بأخبار مثل هذه المجالس الاختبارية ةلا سيما فى الحديث النبوى والأدب ، أى أنه إذا كان الطالب يقصد أن يكون مدرسا ، *فإنه يترك له أن يقرر وقتما يرى ذلك ممكنا* ــ أنه أصبح ذا كفاءة تؤهله لأن يجلس فى مجلس الشيوخ ، غير أن مجلس الشيوخ هذا لم يكن يسيرا ولهذا كان الطالب يتردد طويلا قبل أن ينقل نفسه من مجلس التعلم إلى مجلس التعليم .

وكان مجلس التعليم يرهب -أحيانا- بسبب الأسئلة الكثيرة التى يمطرها الطلاب على المدرسين ، وبخاصة على أولئك الذين هم حديثوا العهد بهذه المنزلة فإذا استطاع المدرس الجديد أن

---

(١) *أحمد شلبى : التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى* ، مرجع سابق، ص ٢٧٠ .

(٢) *منير الدين أحمد : تاريخ التعليم عند المسلمين*، مرجع سابق، ص ص ٨٣-٨٥.

يثبت أمام النقاش والأسئلة التى كانت تصل أحيانا إلى درجة التحدى وإذا وفق فى الإجابة عنها وإقناع الذين تحلقوا حوله فإنه حينئذ يستطيع أن يستمر فى عمله ويواصل التدريس فقد اجتاز العاصفة الشديدة التى كانت تهب ضد المدرسين فى أول عهدهم بهذا العمل أما إذا عجز فى جلساته الأولى عن إقناع الحضور والإجابة عن أسئلتهم كان عليه حينئذ أن يعود إلى حيث كان طالبا يتلقى العلم فى مجالس الشيوخ.[١]

ب= الأهلية للتحديث:

كان عدد الطلاب يزداد حسب شهرة المدرس ومكانته، فقد يختلف معدل الطلبة لكل مدرس تبعا لذلك، وكان على الأستاذ أن يبرز أصوله التى كتبها أيام تلمذته وعليها سماع الشيوخ فيفحصها من أراد ليتحقق من صحتها ومن صحة الإجازة الممنوحة لذلك الأستاذ برواية كتاب من الكتب من قبل المصنف نفسه .

ونظرا لأهمية الحديث الشريف فإن بعض العلماء رأوا وجوب استشارة الشيوخ قبل الجلوس للتحديث فيكونون بذلك قد ارتضاهم الجميع فلا يتعرضون لغمز طاعن فى علمهم أو ورعهم ، ولهذا قال البعض " ***من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه*** "، " ***ومن طلب الرياسة فى غير حينه ، لم يزل فى ذل ما بقى ، واللبيب من صان نفسه عن تعرضها لما يعد فيه نقصا***[٢]، وصيانة للنفس وخشية التصدى للهوان لعدم الأهلية للمهمة التى يطلع بها المرء فعلا ويقوم قال بعض العلماء بضرورة الاستشارة.

جـ= اختيار المدرسين وتصدرهم :

عادة ما كان يتم اختيار كبار العلماء من ذوى السمعة الجيدة لتولى وظيفة التدريس فى المدارس ذات الشهرة ولقد تميز بعضهم بلقب أستاذ عمود أو المتصدر أو أستاذ كرسى ، إشارة لمرتبته ومكانته ونسبة للعمود الذى تعقد الحلقة حوله ، أو الموقع الذى يجلس عليه بالقرب من العمود المخصص له لكى يراه الدارسون المتحلقون حوله ، ولفترة طويلة لم يكن أعضاء هيئة التدريس خاضعين لاستيفاء شروط معينة تتطلبها السلطة بل كانوا يختارون اختيارا طبيعيا من بين أكثر الطلاب اقبالا على العلم وتفرغا له وإخلاصا فى خدمته[٣]، ثم أصبح حق التصدر لا يتم إلا بإذن وتوقيعات من دواوين الإنشاء يصدرها لهم السلاطين من أصحاب السلطة الزمنية أو الدينية ويعد الفرد للشروط العلمية والصفات الشخصية التى ترشحه لمسئولية التدريس.[٤]

---

(١) *أحمد شلبى : **التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى** ، مرجع سابق، ص ٢٦٣ .*

(٢) *بدر الدين بن جماعة : **تذكرة السامع والمتعلم فى أدب العالم والمتعلم**، دار الكتب العالمية، بيروت، د.ت، ص ص ٤٥-٤٦ .*

(٣) *عبد الرحمن النقيب : **ديمقراطية التعليم** ، مرجع سابق، ص ٧٩ .*

(٤) *محمود قمبر : **التربية الإسلامية** ، مرجع سابق، ص ٤٠٩ .*

رابعا : أشكال ومظاهر المرونة بنظام الحلقات التعليمى الاختيارى :

لم يكن التعليم مقتصرا على الطلبة فقط، بل كان فى متناول العامة والخاصة، وما على الشخص إلا أن يحضر الحلقة للتزود بخير الزاد ، هذا ولقد تعددت أشكال ومظاهر المرونة بنظام الحلقات التعليمى الاختيارى كما يلى :

ا= بساطة شروط ومعايير التحاق الطلاب :

لم يكن الطلبة فئة محددة يجرى اختيارها وتسجيلها وفقا لنظام معين كما هو الحال الآن فى نظمنا التعليمية وإنما كان بوسع أى شخص من الناس أن يحضر الدروس على اختلاف أنواعها ولكن غير المسلمين ما كان لهم حضور الدروس الخاصة بالقرآن والحديث،[١] ولهذا كان التحاق الطلبة بالمدارس والحلقات التعليمية فى المساجد الجامعة من البساطة واليسر إذ لا يتطلب ذلك غير ذهاب الطالب إلى المدرسة حيث يجلس على الأستاذ الذى يود ، وكانت الحرية مكفولة فى التنقل بين من يشاء من الأساتذة دون قيد ولا شرط ، كما كان له مطلق الحرية فى اختيار ما يشاء من مواد الدراسة والإعراض عما لا يميل إليه .[٢]

وفى هذا الصدد ردد المسلمون هذه المقولة : "***لكل إنسان ما شاكل طبعه ، وكل ميسر لما خلق له***" فالإنسان الذى لم يرزق الموهبة لا يفيده التعليم ، وبرغم ذلك كانت الحلقات التعليمية مفتوحة للجميع وكل متعلم يختبر قدراته على أرض التعليم ، ويمتحن موهبته عمليا ، فإن أثبتت فاعليتها مشى مع التعليم فى مشوار طويل ، وإن خانته اكتفى بالقدر الأولى من التعليم وعكف على صنعة يحترفها ،[٣] – ***مع عدم غلق الباب أمامه مرة ثانية*** – ولقد كانت معايير الالتحاق بأنماط التعليم من اليسر والمرونة وقد تمثلت فى ضرورة :

أ – توافر الاستعداد للتعليم :

رأى نفر من العلماء وجوب استعداد المتعلمين والتعرف على طبائعهم ،و إلا كان هذا التعليم هدرا ودعى البعض إلى أهمية التوجيه التربوى والمهنى بحيث يكون توجه الشخص نحو التعليم أو غيره موافقا لمزاجه واستعداده .

---

(١) *منير الدين أحمد : تاريخ التعليم عند المسلمين*، مرجع سابق، ص ٦١ .

(٢) *محمد عبد الرحيم أبو غنيمة : تطور التعليم الجامعى فى الإسلام*، مرجع سابق، ص ٣٣ .

(٣) *محمود قمبر : التعليم كنظام، مقوماته ووظائفه*، فى ، محمود قمبر وآخرون : *دراسات فى أصول التربية* ، مرجع سابق ، ص ١٤٨.

ب - توافر الوازع والطلب :

حسبنا الأحاديث الثلاثة " ***طلب العلم فريضة على كل مسلم*** "، " ***اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد*** "، " ***اطلبوا العلم ولو فى الصين*** "، والتى تشير جميعها إلى حكمة نافذة تتجلى فى اقتران العلم بالطلب ، وهل يكون الطلب إلا بوازع من ذات المتعلم وبجهود خاصة يبذلها .

ج - الرغبة فى التعليم والتعلم :

الطالب فى نظر نظام الحلقات التعليمى الاختيارى ، هو كل شخص له رغبة فى التعلم بغض النظر عن سنه والمدة التى يقضيها فى طلبه وتحصيله، أو الشهادة السابقة، أو التخصص السابق .

د - الانتهاء من المرحلة السابقة :

كان الطلاب يلتحقون بالمدارس بعد الانتهاء من دراستهم فى الكتاتيب ، يتلقى فيها الطلاب التعليم المتوسط الذى هو أرفع من تعليم الكتاتيب وأقل من تعليم المساجد، ثم يلتحقون بالمساجد الجامعة بعد انتهائهم من الدراسة فى المدارس والمعاهد .

هـ - حفظ القرآن الكريم :

إن المحدثين والفقهاء كانوا يرون أن الركن الأساسى فى التعليم الإبتدائى هو حفظ القرآن الكريم وكانوا يكتفون به كشرط لقبول الطلاب فى حلقات التعليم الأعلى.

٢= المرونة فى أعمار المقبولين:

لم تكن هناك سن محدودة لطالب بل كان كل فرد يدرك أن من واجبه أن يطلب العلم ما أتيح له ذلك فى أى فترة من فترات عمره حتى ولو كان شيخا طاعنا فى السن[١]، أى أن سن الطلاب لم يكن محددا أو مقيدا فقد كان التعليم بدءا من الكتاب أشبه بمدرسة لا صفية ، الدخول فى أى وقت حر ومفتوح لا يقيد بالسنة الدراسية [٢]، والنتيجة لكل هذا ***أن العمر كله يجب أن يكون مسرحا لتلقى العلم.***

٣ = إدارة تعليمية مرنة تحترم شخصية العالم والمتعلم:

عند دراستنا للطبيعة الديمقراطية للتعلم فى التقاليد الإسلامية، ينبغى أن نتذكر أنه نشأ أصلا تلبية لحاجة دينية هى أن يتفقه الناس فى أمور دينهم ، ثم تحولت تلك الحاجة إلى خدمة اجتماعية يقوم

---

(١) *أحمد شلبى : التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى ، مرجع سابق، ص ٣٠٧ .*

(٢) *محمود قمبر : التربية الإسلامية ، مرجع سابق، ص ١٤٩ .*

بها الناس لأنفسهم عن طريق التضامن ، وقد ترتب على ذلك أن التعليم قد ارتبط ارتباطا وثيقا بالجماعة فهى التى تشعر بالحاجة إلى هذا التعليم وهى التى تنظم أمور الصرف وتمويله عن طريق الأوقاف والهبات وبذلك ظل هذا التعليم فى الغالب تعليما شعبيا بعيدا عن تأثير وتدخل السلطات الرسمية.(١)

فالتعليم كان أمرا من أمور الأفراد و لم يكن شأنا من شئون الدولة بالفعل ولا يعيب نظام الحلقات التعليمى الاختيارى أنه كان بعيدا عن سيطرة الدولة وتدخلها فى شئونه المالية والإدارية ، بل وربما كان هذا من أعظم مميزات هذا النظام فقد جعلته أكثر اتصالا بحاجات الجماهير كما جعلته محور اهتمام الأفراد والجماعات من خلال ما أتاحه من حريات واسعة للطلاب والمعلمين .

وبالنسبة للنظم الإدارية المتبعة فى المؤسسات التعليمية الإسلامية سواء أكانت مسجدا أو كتابا أو صالونا أدبيا أو مدرسة فقد كانت نظما ذاتية سهلة مبسطة ، فيها كثير من الديمقراطية واحترام شخصية العالم والمتعلم .

و لم يكن بين المدارس تنسيق عام على مستوى المدينة أو الدولة أو الأمة ، حتى المدارس النظامية ببلاد فارس والعراق فهى على الرغم من خضوعها لسلطة الدولة فى تمويل ميزانيتها —وتدين بمذهب ما –، إلا أنها تباينت من حيث مناهج وطرائق التعليم وإدارة النشاط تبعا لقدرة وكفاءة علمائها المدرسين ، و لم تخضع لسياسة تعليمية ثابتة ومعروفة .(٢)

ولهذا ظلت المدارس الإسلامية تقوم وتعمل فى جنبات العالم الإسلامى كمؤسسات حرة أو مستقلة حتى بدايات القرن التاسع عشر عندما ظهرت النظم التعليمية بفلسفات وأشكال تربوية جديدة متأثرة بالتطورات الغربية التى غيرت من نظم المجتمع .

٤= حرية اختيار المواد الدراسية (مرونة الخطط والمناهج الدراسية):

كانت أهم الموضوعات التى تدرس فى المسجد فى البداية علوم القرآن الكريم والحديث الشريف ثم الفقه ثم أصبح فيما بعد موئلا لعلوم العربية من نحو وصرف وأدب وشعر وعلم التاريخ وعلم الكلام ، أى لم تكن مقتصرة على الدروس الدينية، و بمضى الزمن أصبحت الهيئات الإسلامية العليا فى المساجد تقوم بتنظيم المواد على شكل *وحدات رئيسية* بلغت فى مجملها بصورة أولية (إثنتا عشرة مادة أساسية) تنتظم فى ثلاث دوائر هى : الدراسات الدينية والدراسات اللغوية والدراسات

---

(١) *عبد الرحمن النقيب : ديمقراطية التعليم فى عصور الازدهار الإسلامى* ، مرجع سابق، ص ص ٧٧-٧٩ .

(٢) *محمود قمبر : التعليم كنظام، مقوماته ووظائفه*، مرجع سابق، ص ص ١٣٣-١٣٤ .

الأدبية، ولا غبار على تنقل الطلاب من دائرة إلى أخرى أو تغييرهم للمواد الدراسية فربما وجد البعض (الحديث) مرهقا فتحول عنه إلى الفقه وهكذا.[١]

وبصفة عامة كانت نوعية التعليم والخطط ومحتوى المناهج الدراسية تختلف باختلاف الأمصار واختلاف التوجيه التربوى والمهنى للطلاب ويجرى تعديلها بين حين وآخر ، ***ولم تكن جامدة بل كانت تتسم بالمرونة والتجدد ، وكان فى مدى إقبال الطلاب عليها أو عزوفهم عنها أساس بنائها وتعديلها أو تغييرها .***

وتذكر لنا تصانيف العلوم ، تلك العلوم العديدة التى كانت على طالب التعليم الأعلى ***أن يختار من بينها ما يشاء*** ، وقدم العلماء تلك التصانيف كأدلة علمية لطلابهم ، يوضحون فيها مواد التخصص المختلفة وفكره موجزة عن كل علم ، وأشهر المؤلفات والدراسات التى كتبت فى كل علم على حدة ، واستحثوا طلاب العلم على ***أن يختاروا من العلوم ما يحبون***، وكان يبدأ بالعلوم المهمة أولا ، فالأقل أهمية ، وهكذا لأن العمر الإنسانى محدود والعلوم كثيرة.

و لم تخدم تلك ***التصنيفات*** طلاب التعليم الأعلى كأدلة للإرشاد الأكاديمى والتربوى فقط ، بل أعطت طلاب هذا التعليم صورة عن تعدد العلوم وصعوبة الجمع بينها ، وبذلك أكدت لديهم أن بحور العلم واسعة وعميقة إلا أنه قد ظهر معه ***مفهوم الاختيار لمواد الدراسة والمقررات فى الجامعات الإسلامية*** ، إذ كان يجب على طالب العلم أن يبدأ فيه بالمهم ، ***وأن يختار من صفوفه ما هو أنشط له وطبعه به أعنى ، فإن القبول على قدر النشاط والبلوغ على قدر العناية***[٢]، وكان لا يجب على الطالب تعليم ما لا يحتمله فهمه أو سنه ، ولا بكتاب يقصر ذهنه عن فهمه، وإذا علم أو غلب على ظنه أنه لا يفلح فى علم عليه تركه والانتقال إلى غيره مما يرجى فيه فلاحه.[٣]

٥= التنقل المرن بين المؤسسات والحلقات التعليمية المفتوحة :

كان التعليم فى المسجد حر حرية مطلقة ، ليس هناك موعد لحضور الطلاب أو انصرافهم ، وليس الطالب مقيدا بالاستماع إلى أستاذ معين أو دراسة علم معين ، وليس الشيخ مقيدا بمنهج ثابت فكان الطلاب يحضرون على الشيخ الذى يروقهم فى حلقته ، فإذا أحب طالب دروس شيخ لزمه ، وأخذ عنه يتخرج على يديه ويجيزه للتدريس .[٤]

---

(١) حسين المومنى : ***حرية التعليم والتعلم فى التقاليد العربية الإسلامية***، مرجع سابق، ص ص ١٢٣، ١٤٤.

(٢) أبى هلال العسكرى : ***الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه***، تحقيق مروان قبانى ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٦، ص ٤٧.

(٣) بدر الدين بن جماعة : ***تذكرة السامع والمتعلم فى أدب العالم والمتعلم***، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٤) أحمد فؤاد الأهوانى : ***التربية فى الإسلام***، مرجع سابق، ص ١٦.

ومن مظاهر المنهج الاختيارى الذى كان قائما فى التعليم العالى الإسلامى أنه ***كان يتاح لطالب العلم الانتقال من مسجد إلى آخر ، ومن مدرسة عليا إلى أخرى طلبا للمزيد من العلم ، وبمرونة تكاد تكون مطلقة تعطى المدرس والدارس حرية واسعة***[1]، إذ لم يكن عدد الطلاب الذين يدرسون على مدرس ما محددا ، فكان التفاوت فى عددهم ، يرجع إلى مدى رغبتهم بدراسة المادة الدراسية — موضوع الحلقة — وتوقيتها ومدى ملاءمته لهم ، ومدى شهرة المدرس ومكانته ، أى حسب معايير الأهمية للمادة الدراسية ومكانة وشهرة المدرس والمؤسسة التعليمية مدرسة كانت أو مسجدا.

ومع تقدم المدارس وتطورها وكذلك الحال فى المساجد الجامعة ، أصبح عدد الطلاب محددا نوعا ما ، وبالرغم من هذا التحديد النسبى لأعدادهم ، إلا أنه ***بقى التفاوت فى عددهم قائما — كمظهر من مظاهر مرونة وحرية الانتقال والتنقل وسهولته بالنسبة للمتعلمين .***

٦= اختلاف طول البرنامج اليومى للطلبة :

إذا كانت أبواب التعليم مفتوحة طيلة ساعات النهار ، بل وربما تمتد لبضع ساعات من الليل ، لذا فإن طول اليوم الدراسى يختلف من طالب لآخر وتمثل ذلك فى مظهرين :

أ-التجوال والدوران :

كان الطلاب يحرصون على حضور المحاضرات العارضة (غير المنتظمة)، وعلى لقاء الشيوخ الذين ليست لهم دروس منتظمة علاوة على الدوران الذى كانوا يقومون به من مكان إلى آخر لحضور دروسهم المعتادة التى تعقد فى بعض الأحيان فى أماكن متباعدة بعضها عن بعض .

أما عدد اللقاءات التى يجريها الطالب فى الدوران خلال يوم واحد فكان يختلف حسب رغبة الطالب نفسه وقدرته ، فقد كان بعضهم يحضر دروس خمسة شيوخ فى اليوم الواحد علاوة على المذاكرة مع زملائه وتبييض ما كتبه ومراجعة الأصول ، بل إن بعضهم كان — فوق ذلك- يعمل لكسب قوته، والحق أن الدروس كانت تعطى فى جميع ساعات النهار مما منح الطلبة الفرصة ليطفئوا ظمأهم إلى العلم ، وكان بوسعهم أن ينتقلوا من مكان إلى آخر طلبا للمزيد من الدروس ، بل كانوا يتراكضون ليدركوها.[2]

ب-الانتظام والمواظبة :

إذا جاز لنا أن نسمى المساجد الجامعة والمدارس التى كانت تعنى بالتعليم على مستوى عال بالجامعات أو الكليات ، فإن تلك الكليات كانت تعنى بالانتظام والمواظبة وعلى الأقل بالنسبة

---

(١) منير الدين أحمد : *تاريخ التعليم عند المسلمين*، مرجع سابق، ص ٥٣ .

(٢) الحافظ أبى بكر أحمد بن على بن الخطيب البغدادى : *تاريخ بغداد*، مرجع سابق، الجزء٦ ص ص ٤١-٤٢ .

لطلاب العلم المعنيين بالحصول على إجازات علمية ، وفى الوقت ذاته كانت تأخذ بنظـــام الطـــلاب المستمعين ، فتتيح لمعظم الراغبين من غيرهم الحضور كمستمعين .

٧ = اختلاف طـــول مدة التعليم من متعلم لآخر:

كانت عملية التعليم تمضى بطريقة غير جامدة ، و لم يكن من اللزوم أن يصل كل المتعلمـــين إلى نفس المستوى التحصيلى فى وقت محدد بل روعيت الفروق الفردية ، فهناك الأذكياء والموهوبـــون وهناك المتوسطون ويتشكل المنهج ، وتطول مدة التعليم أو تقصر وفق القدرة العلمية لكل متعلم.

ولقد عرفت المدارس والمساجد الجامعة نوعا من التحديد لمدة إقامة الطلاب بهـــا ، لكنـــها كانت فترات تقديرية فقط ، بحيث يستطيع الطالب العادى خلالها أن يحصل عددا لا بأس بـــه مـــن العلم فى النوع الذى تخصص فيه ، إذ لم تكن المدة التى يقضيها الطالب فى الدراسة محددة ، لأن منـاهج الدراسة نفسها لم تكن محددة أيضا، فطلبة الحديث مثلا كانوا يقضون السنين فى جمـــع الحديـــث ثم يأخذون فى تدقيق متونه وأسانيده ، ويشرعون فى تصنيفه وتبويبه،وقد يستغرق ذلك حياتهم كلـــها[١] لذلك فإنه يتعذر تحديد الزمن الذى يتم فيه هؤلاء الطلاب دراستهم ، والحق أن المحدثين أنفسهم كـانوا يواصلون الطلب حتى بعد أن يكملوا التحصيل .

٨ = تسارع بعض المتعلمين:

كانت توجه عناية خاصة للطلاب الموهوبين الذين تبدو عليهم مخايل الذكاء والفطنة، وكـــان يعد من الظلم أن يحرم طالب نابغ من تلقى العلم لأى سبب من الأسباب ، ***إذ ليس الظلم فى إعطـاء العلم لغير المستحقين بأقل من الظلم فى منع المستحق*** [٢]، وكانت رعايـــة النـــابغين فى المجتمعـــات الإسلامية تقوم على بعض المبادئ منها :

- الرعاية والحماية والتشجيع حق لكل نابغة ، وواجب شرعى على أولى الأمر فى المجتمع ،فلا خـــير فى مجتمع لا يوقر علماءه ولا يستفيد من علمهم .
- مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين بحسب فرص التعليم ، حتى يصل كل متعلم إلى أقصى وســع ممكن لقدراته وظروفه.[٣]

---

(١) منير الدين أحمد : ***تاريخ التعليم عند المسلمين***، مرجع سابق، ص ص ٧٤-٧٥ .

(٢) أبو حامد الغزالى : ***إحياء علوم الدين***، الجزء الأول ، ص ٤٧ .

(٣) كمال إبراهيم مرسى : ***رعاية النابغين فى الإسلام وعلم النفس***، الطبعة الثانية، دار القلم، الكويت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢، ص ١٧٧ .

ولقد كان التعليم تعليما مفتوحا بكل معانى الكلمة ، يتاح فيه للطالب أن يتعلم تعلما فرديا وفق سرعته الخاصة فى التعلم كما يلى :

١- ***بدءا من الكتاب :*** وجب على المعلم أن يعلمه انفرادا ، وجها لوجه وتبعا لحالته وابتداء مستوى معرفته ، فالمعلم كأنه مؤدب خصوصى يتعامل مع زبائن فرديين ، ومن ثم كان عليه أن يعرف على وجه التحديد حالة كل متعلم ومقدار جهده لكى يعلمه بقدر طاقته[١].

٢- ***جمع الكتاب الواحد مستويات تعليمية متعددة وقدم موضوعات دراسية مختلفة*** وروعى الأطفال الموهوبين ، بإضافة مواد دراسية "إثراء" Enrichment ، أو تكوين مجموعات خاصة Special grouping وإتاحة الفرص للقادرين علميا أن يتقدموا بسرعة فى دراستهم "إسراع" Acceleration[٢].

٣- كان من نتيجة إقبال الطلاب على حلقات التعليم وهم فى سن مبكرة أن حذقوا قسطا كبيرا من العلوم ووصلوا إلى مراكز علمية مرموقة وهم فى مطلع الشباب ومقتبل العمر.

٤- لم تأخذ نظم التعليم بتحديد مرحلة متوسطة بين التعليم الإبتدائى والعالى ، لذا كان يسمح للأطفال بحضور مجالس الحديث ، وربما كتب لهم الشيوخ الإجازة والسماح وهم فى سن الصبى .[٣]

٥- فى الدراسات العليا ، كان يسمح للطالب إذا أحاط بمرجع أو كتاب ما أو قام بتأليفه أن يتقدم -فى حينه- إلى الجهة العليا فى المسجد الجامعة أو المدرسة لانتداب أحد كبار العلماء المتخصصين فى الموضوع لمناقشته والاعتراف له بجهده العلمى وإجازته.[٤]

---

(١) *محمود قمبر : **التربية الإسلامية**، مرجع سابق، ص ١٣٦ .*

(٢) *عبد الرحمن النقيب : **قضايا ومناقشات حول التعليم الابتدائى** ، مرجع سابق، ص ٥١ .*

(٣) *الحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب : تاريخ بغداد، مرجع سابق ، ٤٥٦ .*

تشير المراجع إلى صور متعددة من الشباب ممن اجتازوا حلقات التعليم المتصلة جميعها حتى حصلوا على ما يعادل الإجازة العالية ، وهم لازالوا بعد فى مقتبل العمر، ومن التراث التعليمى نلمح بعض من النماذج والأمثلة مثل :

- ***الإمام الشافعى** : أجاز له الإمام مالك بالفتيا وهو بن خمسة عشر عاما.*
- ***بن سينا** قرأ كتب الطب بنفسه حتى أضحى طبيبا مرموقا وعمره ستة عشر عاما، أنظر : على عبد الله الدفاع : **نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات**، تورنتو، جون وايلى وأبنائه، ١٩٧٨ .*
- ***بن تيمية** : تفوق فى علوم عصره وجلس يحاضر مكان أبيه وعمره تسعة عشر عاما، أنظر : محمود مهدى الاستانبولى : **ابن تيمية بطل الإصلاح الدينى** ، دار المعرفة، دمشق، ١٩٧٠ .*
- ***جمال الدين الأفغانى** تعلم العربية والأردية والفارسية والإنجليزية والرياضيات والفلسفة وعلوم الدين قبل بلوغ ثمانى عشر عاما.*

٩= تعدد وتنوع سبل تلقى العلم :

لم يكن تلقى الطلبة العلم عن الشيوخ بغير ضوابط ، بل وضعت أدق المقاييس العلمية التى تنقل فيها تلك الدروس والعلوم والأخبار مع بيان ميزان كل مقياس منها ، ولقد تعددت طرق نقل الطالب للعلوم عن أستاذه وأصول الرواية ، وتمثلت وجوه الأخذ فى : السماع من لفظ الشيخ ، القراءة على الشيخ ، المناولة ،الكتابة ، الإجازة ، الإعلام ، الوصية ، الوجادة[١]، ولقد اختلفت سبل التعليم المباشر عن التعليم بالمراسلة كما يلى :

أ =التعليم المباشر :

كانت العديد من المساجد الجامعة والمدارس لا تجيز الدراسة فيها عن طريق الانتساب أو المراسلة ، بل كانت تعنى بأن يكون التعليم والتعلم مباشرا وعمليا ، فيه تلقى وتفاعل حتى، يحيا الطالب فيها حياة دراسية جامعية اجتماعية حقيقية ، وتتوافر فيها مقومات (مجتمع مصغر)، تشدهم فيه إلي بعضهم عقيدة واحدة ولغة تعلم وتفاهم مشتركة ، ويتبادلون التأثر والتأثير فيما بينهم من ثقافات وعادات وطبائع متنوعة لها دورها فى إخصاب عطائهم المعرفى ،وصقل سلوكهم الاجتماعى.

ب =التعليم بالمراسلة :

لم تكن المدارس والمساجد الجامعة تبث برامجها عبر الأثير أو تفرض مناهجها فى الحضور والانتظام بالدروس عنوة وقسرا، بل كانت هناك مرونة تمثلت فى استخدام علماء المسلمين لأسلوب التعليم بالمراسلة ، ويستدل على ذلك من أسماء الرسائل العلمية والأدبية التى تمتلئ بها المكتبة العربية ، و التى كتبها الأساتذة والشيوخ لطلابهم إجابة على أسئلة محددة ، أو كتبها العلماء بعضهم إلى بعض ردا على رأى علمى أو توضيحا لمسألة غامضة ، وكانت تلك الرسائل العلمية من أقوى أساليب التواصل بين العلماء والطلاب ، والعلماء وزملاءهم فى التخصص وغير التخصص فى سائر أنحاء العالم الإسلامى.

١٠= التعاقب المستمر بين التعليم والعمل :

من مفاخر التعليم فى تلك المدارس والعاهد الإسلامية أنه كان يتاح للطلاب فرصة الانقطاع للعلم والتفرغ للتحصيل والدراسة ، إذ كان لكل طالب بيت أو كما كان يسمى حجرة خاصة فى ***الرواق*** ، وكان هذا النظام خير ما يمكن أن يقدم إلى طلاب فيهم الكثير من الفقراء والغرباء والنازحين من مختلف أرجاء العالم الإسلامى الذين يعز عليهم الحصول على المأوى اللازم والقوت الضرورى[٢]، وكان ***يمكن لطالب العلم الجمع بين العمل والدراسة أو التناوب بينهما، كما يلى :***

---

(١) قحطان عبد الرحمن الدورى : ***أصول تلقى العلوم فى المجتمع الإسلامى*** ، تعليم الجماهير، العدد ١٤ ، السنة ٦، ١٩٧٩، ص ١٤.

(٢) محمد عبد الرحيم أبو غنيمة : ***تطور التعليم الجامعى فى الإسلام***، مرجع سابق، ص ١٨٣.

أ = الجمع بين العمل والدراسة :

إذا كان التعليم بالمجان وكان نظام الوقف يكفل لمعظم الطلاب آنذاك تلك المجانية بسماتها الشمولية ، إلا أنه كان هناك نسبة من الطلاب كانوا يتحملون نفقات دراستهم ، وكان كثير منهم يعملون فى إحدى الحرف أو المهن لكى يوفروا تلك النفقات ولا سيما نفقات الرحلة فى طلب العلم،(١) بل إن غالبيتهم كانت لهم مهن خاصة يلازمون العمل بها إبان تلمذتهم وأستاذيتهم على السواء ، وهى فى الغالب مهن آبائهم ، وكان بعض هؤلاء الطلاب يعملون وكلاء للتجار، الذين يوفدونهم فى تجارتهم إلى بلاد أخرى ، فيجمع هؤلاء بين طلب العمل وطلب العلم .

أيضا كان ***بإمكان المتعلم أن يعلم الناس دون تحديد للسن أو غيره ، فهناك بعض الشبان بدءوا فى*** ممارسة مهنة التدريس و لم يتجاوزوا سن العشرين ، إذ لم يعتبر الطلاب أنفسهم فئة منقطعة الصلة بالحياة خارج مدارسهم أو معاهدهم .

ب = التناوب بين التعليم والعمل :

الطلبة المنتظمون هم الذين يتركز اهتمامهم بالدرجة الأولى على العلم ويقضون شطرا من حياتهم فى طلب العلم وحده، ولكن ذلك لا يمنع من اشتغالهم بكسب الرزق، و لم يكن يشغلهم العمل عن التعليم ، بل كان التاجر مثلا يتعلم والمتعلم يتجر ، ويتناوبون فى ذلك أحيانا كى لا يفوتهم شئ من العلم (٢).

وتشير المراجع إلى صور متعددة لكبار السن ممن زاوجوا بين الدراسة والعمل وفقا لظروفهم وحصلوا على الإجازات وهم شيوخ فى السن ، كانوا يتعلمون ويعملون فى الوقت نفسه (٣).

(١) منير الدين أحمد : ***تاريخ التعليم عند المسلمين*** ، مرجع سابق، ص ٨٣.

(٢) كان بعض الصحاب من الطلاب يتناوبون بين التعليم والتجارة ، فيترل أحدهما إلى السوق ويذهب الآخر إلى حلقات العلم فى المسجد ليجيئه بخبر ذلك اليوم من العلم، ويعكسون الأمر فى اليوم الثانى ، حرصا على عدم مفارقة دروس العلم، وقد بوب البخارى ذلك تحت عنوان التناوب فى العلم، أنظر:

- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى : ***صحيح البخارى بشرح الكرمانى***، الجزء الثانى ، الطبعة الأولى، المطبعة المصرية بالقاهرة ، ١٩٣٢، ص ٧٧ .

(٣) أمثال : ***الإمام أبى حنيفة النعمان*** الذى كان يعمل بالتجارة، ***والإمام الغزالى*** الذى كان يعمل غزالا، والشاعر الذائع الصيت ***أبو تمام الطائى*** الذى كان يعمل سقاءا متواضعا فى جامع عمرو بن العاص ، ***والجاحظ*** الذى كان يبيع الخبز والسمك بسيحان، الذى مهدت له الحياة التعليمية المتناوبة بين التعليم والعمل من أن يتلقى تعليمه المستمر حتى أصبح فى القمة بين العلماء وأصبح معلما للأجيال التالية ، أنظر :

- أحمد شلبى : ***التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى***، مرجع سابق، ص ٢٩٨ .

خامسا : التعليم فى المسجد الجامعة الأزهـــــر

(النموذج التطبيقى لنظام الحلقات التعليمى الاختيارى فى مصر) :

عرفت الأجيال المتعاقبة الأزهر دائما معهدا للقراءة والدرس ، كما عرفته دائمـــا مســجدا جامعا ، فقد لعب الأزهر دورا تربويا مؤثرا فى التاريخ التربوى المصرى خاصة والإسلامى عامة منـــذ إنشائه فى رمضان عام ٣٦١هـ-٩٧٢م ، وبداية الحلقات الدراسية الاختيارية فيه عام ٣٦٥هـــ٩٧٥م (١)،ولكن توجد ثمة فكرة ذائعة الصيت يجب محوها، وثمة حقيقة تاريخية يجب تقديرهـــا ، ذلـك أن الجامع الأزهر لم ينشأ فى الأصل ليكون جامعة أو معهدا للدروس ، وليس ثمة فى ظروف إنشـــائه ثم فى ظروف سيرته الأولى ما يدل على أنه أنشئ لمثل هذه الغاية، وإنما أنشئ الجامع الأزهر ليكون مســجدا للدولة الفاطمية فى حاضرتها الجديدة ومنبرا لدعوتها الدينية ورمزا لسيادتها الروحية (٢).

بيد أن هذه الصفة المذهبية التى أصبغت على الجامع الأزهر عند إنشائه لم تكـــن لتحـــول دون اتسامه فيما بعد بالسمة التعليمية ، فإن المدرسة لم تكن قد وجدت بعد فى مصر الإسلامية ، وكـــانت المساجد الجامعة تقوم برسالتها العلمية إلى جانب رسالتها الدينية (٣)، و لم تمض بضعة أعوام قليلة حتى بدأ الجامع الأزهر فى القيام برسالته العلمية والتعليمية إلى جانب رسالته الدينية دون سابق قصـــد ولا ترتيب ، فقد كانت فكرة الدراسات بالأزهر حدثا عارضا، ترتب على فكرة الدعوة المذهبية ولكـــن غلب الحدث شيئا فشيئا على صبغته الأولى حتى أسبغ عليه ثوبه التعليمى الخالد.

ولقد كان لهذه الوظيفة التعليمية شأن كبير فى حياة الأزهر وتاريخه حتى كادت تحجب جميـــع وظائفه وأوجه نشاطه الأخرى من دينية وسياسية وعلمية وثقافية ،بل إن كلمة ***الجامع الأزهر*** كـــانت إذا أطلقت لا يتبادر منها إلى الذهن إلا هذه الوظيفة ، فقد غدا الأزهر ***منارة*** للمسلمين كافة ومعقـــلا للعلوم الدينية والعربية بمختلف مذاهبها وفروعها ، وغدا ***قبلة*** لطلاب الثقافة والعلـــم والمعرفـــة مـــن المسلمين فى شتى الديار والأقطار ، يفدون إليه لينهلوا من علومه ومعارفه ثم يعودون إلى أوطانهم وهـــم يحملون فنون الفكر التى تلقوها فى هذا المعهد العريق.

(١) أنظر : أ- *أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى) : **النجوم الزاهرة فى ملوك مصـــر والقـــاهرة** ، تحقيق محمد فهيم شلتوت ، طبعة دار الكتب ، الجزء الرابع، ١٩٧٠ ، ص ٣٢ .*

- *ب -المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، نسخة دار الشعب، مطبعة بولاق الجزء الثانى ، ١٢٧٠ هـــ، ص ٣٤٠ .*

- *Summerfield, Carol and Devine, Mary Elizabeth (Eds); **International dictionary of university histories**, op.cit, p.9*

(٢) *سعيد إسماعيل على : **معاهد التعليم الإسلامى** ، مرجع سابق ، ص ١١٤ .*

(٣) *كان جامع عمرو بن العاص أول المساجد الجامعة فى مصر هو أيضا أول معهد قام فيه الدرس والقراءة، وكـــان الوزير يعقوب بن كلس وزير المعز لدين الله والعزيز بالله، هو أول من فكر فى اتخاذ الجامع الأزهر معهدا علميـــا للدراسة المنتظمة، أنظر : **الأزهر فى ١٢ عاما**، إعداد اللجنة المشكلة بالقرار الوزارى رقم ٢ لسنة ١٩٦٤ ، الـــدار القومية للطباعة والنشر، ص ١٣ .*

ولقد اقترن هذا التعليم بوجدان الشعوب وتفكيرهم ، فكان يطلب ويحترم لذاته ، وكان أمل كل أسرة أن يصل أحد أبنائها إلى الأزهر لتفخر بأنها وهبت بعض أبنائها للعلم (١)، وكان الكثيرون من طلاب العلم بعد أن ينالوا منه بغيتهم يعودون إلى بلادهم، فلا يبحثون عن وظيفة يستغلون فيها هذا العلم استغلالا ماديا ، بل يشتغلون بتجارة أو زراعة ويعملون فى الوقت نفسه على إفادة الناس بعلمهم وكان بعضهم يقرءون دروسا دينية فى غيره من المساجد الأخرى.

ولذا فمن العجب العجاب أن النظام التعليمى الأزهرى –بحلقاته الاختيارية – الذى أهملناه بعد إدخال محمد على النظام التعليمى الحديث ، ***كان هو الأساس للنظم والتقاليد الجامعية فى غيره من جامعات العالم ، وفى الوقت نفسه كان الأساس للتعليم غير النظامى بما اتسم به من مظاهر انسيابية ومرونة متعددة*** كما يلى :

١= حرية الالتحاق بالتعليم فى الأزهر:

كان الطلاب يذهبون إلى الأزهر والكتاتيب الملحقة به باختيارهم دون ضغط أو قسر(٢)، وكانت حلقات الدرس مفتوحة لكل مسلم عاقل يريد أن ينهل من الثقافة الإسلامية ، لا تسريب على أحد مهما كان عمره وثقافته (٣)،لا تحول بينه وبين رغبته فى طلب العلم شروط السن أو غيرها من الشروط التى تحول دون التحاق الطالب به (٤)، ***فالتعليم بالمجان والطلاب غير مقيدين بسن محددة أو شهادات خاصة أو درجات معينة فى الامتحانات*** أو قواعد مسنونة لاختيارهم ، فمتى وجدت لدى المتعلم الرغبة فى الدراسة والمحبة للعلم والشغف فى البحث والاطلاع ، يسرت أمامه وسائل التعليم وشجع على طلب العلم (٥).

ولقد تأثر الأزهر فى هذا الشأن تأثرا كبيرا بمبدأ المساواة وتكافؤ الفرص أمام الطلبة جميعا ، يفتح أبوابه لمختلف الجنسيات من مختلف البلدان ولجميع أبناء القطر المصرى على اختلاف بيئاتهم وطبقاتهم – فقيرهم وغنيهم – ***لا يحول بينهم وبين الالتحاق به أى حائل*** ، ما دام قد اكتسبوا في الكتاب الأساسيات اللازمة لمواصلة التعليم به ، وقد وصف بأنه كان ***جامعة حرة علنية يلتحق بها من شاء*** – سواء من رجال العلم أو من غير رجال العلم – ففى رحابه ***عرفت المساواة و انعدمت الامتيازات*** بين كل الطلاب فأروقته ترحب بأبناء المسلمين الذين نفروا إليه من مختلف الأقطار

(١) الأزهر ، مجمع البحوث الإسلامية : ***الأزهر جامعا وجامعة ، أو مصر فى ألف عام***، سلسلة البحوث الإسلامية ، الكتاب الرابع، السنة ١٧ ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، ص ٣١٧.

(٢) سعيد إسماعيل على : ***الأزهر على مسرح السياسة المصرية ، دراسة فى تطور العلاقة بين التربية والسياسة***، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٤، ص ١٦٣.

(٣) سعد مرسى وسعيد إسماعيل على : ***تاريخ التربية فى مصر***، عالم الكتب، ١٩٧٣، ص ٢١٣.

(٤) على عبد الواحد وافى : ***لمحة فى تاريخ الأزهر***، مكتبة المرغنى ، الطبعة الثانية ، ١٩٣٦، ص.ص ٤٨، ٤٩.

(٥) محمد عطية الأبراشى : ***التربية الإسلامية وفلاسفتها***، الطبعة الثالثة ، دار الفكر العربى، د.ت، ص ٢٦.

والأمصار فى شتى العصور ، يبتغون التفقه فى الدين والمعرفة والعلم النافع والتوجيه السديد ، لا يفرق بين الطبقات ولا المذاهب ولا الأوطان (١).

٢= مجانية التعليم الشاملة :

الأزهر مثال نموذجى لمجانية التعليم ، تلك المجانية الممنوحة لجميع الطلاب على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم من غير أى تمييز لعنصر أو طبقة من الطلاب ، فلقد نشأ واستمر حتى يومنا هذا يستقبل الطلاب من كل صوب لا يؤدون عن تعليمهم أية نفقات كما يوفر لهم الغذاء والكساء والمأوى (٢).

ومازال هذا الأمر مفخرة حقيقية للأزهر على سائر جامعات العالم، إذ لا نكاد نعرف فى العالم المتمدن أى جامعة تقوم بالإنفاق على الآلاف المؤلفة من طلابها كما فعل الأزهر من خلال حياته إلى يومنا هذا (٣)، ويرى بعض المؤرخين أن جامعات أوربا الأولى كانت قد اقتبست عن المدارس والمعاهد الإسلامية وبخاصة الجامع الأزهر أقدم جامعة- بعض تفاصيل نظمها من حيث الدراسة ومناهجها وسبل القبول فيها ، وما كان متبعا فيما يتعلق بتقديم الطعام والرواتب السنوية لكثير من الطلبة المعوزين (٤).

وفوق هذا فقد شهد الأزهر سلسلة من الإجراءات التعليمية والإدارية جعلت منه جامعة وهيأت له السبيل كى يمضى شوطا بعد شوط فى الحياة الجامعية إلى غايتها وكانت بعض تلك الإجراءات تتمثل فى توفير مرتبات وعطايا وطعام وسكن ومواصلات للمشايخ والأساتذة (٥).

٣ = التفرغ أو التناوب بين التعليم والعمل :

إذا ما أتم الصبى مرحلة التعليم فى الكتاب جاز امتحانا فيما حفظه من القرآن وفى الكتابة ، واختبار حفظ القرآن كله يعرف- **بالختمة**- وعندئذ إما أن ينقطع عن التعليم ويتجه إلى الصناعة التى يريد أن يزاولها لكسب المعاش وإما أن ينصرف إلى مرحلة أخرى من التعليم أرقى من التعاليم فى الكتاب، فى المسجد الجامع بأى من الخواضر الكبرى ثم إلى الجامع الأزهر دون انقطاع حتى الانتهاء من الدراسة المتقدمة به، وقد ينقطع للعمل أو لأى غرض شخصى لفترة ثم يعود وقتما يشاء ، بل قد يجمع بين طلب العلم و السعى فى الرزق (٦).

(1) - *Summerfield, Carol and Devine, Mary Elizabeth;* ***International dictionary of university histories,*** *op.cit, p.p. 9,10.*

- *سعيد إسماعيل على :* ***الأزهر على مسرح السياسة المصرية*** *، مرجع سابق ، ص ٦٠ .*

(٢) كان الأزهر أول من وضع اللبنة الأولى فى الإسكان الجامعى فى العالم (***نظام الرواق*** *) ، أنظر :*

محمد أبو حسان : ***تأثير الحضارة العربية الإسلامية فى نشأة الجامعات الأوربية*** *، مرجع سابق ، ص ١٨٢ .*

(٣) سيدة إسماعيل الكاشف : ***الجامع الأزهر ودوره فى نشر الثقافة العربية*** *، مرجع سابق ، ص ٧٣ .*

(٤) أحمد شلبى : ***التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى*** *، مرجع سابق ، ص ٢٩٩ .*

(٥) حسين المومنى : ***حرية التعليم والتعلم فى التقاليد العربية الإسلامية*** *، مرجع سابق ، ص ١٤٣ .*

(٦) كمال إبراهيم مرسى : ***رعاية النابغين فى الإسلام وعلم النفس*** *، مرجع سابق ، ص ١٧٨ .*

ومنذ سنة ٣٧٨هـ-٩٨٨م اتخذ الأزهر صفته التعليمية الجامعة،فعين له طلبة متفرغين للدراسة ، ووفرت الأوقاف كل ما يعينهم على الدراسة والتحصيل حتى لا تشغلهم مطالب الحياة أو السعى وراء الرزق، فرتبت لهم الأرزاق والجرايات ، وأنشأت لهم المسكن- الرواق- وقدمت لهم الكسوة فى كل عيد ويسرت لهم سبل الترحال.

٤= المراحل والحلقات التعليمية المتصلة:

لم يكن المصريون يعرفون من ألوان التعليم حتى أوائل القرن التاسع عشر إلا هذا التعليم الدينى الذى يتم بالأزهر وغيره من المساجد الكبرى ، بالإضافة إلى العديد من الكتاتيب المنتشرة بأرجاء البلاد ، فكان الطفل فى العادة يتعلم فى البداية فى الكتاب حيث يتقن مهارات القراءة والكتابة ويحفظ القرآن الكريم ويتعلم مبادئ الحساب ، وبعد ذلك يحق له أن ينتقل إلى مستوى تعليمى أكبر غالبا ما كان يتم فى المساجد الكبيرة بأنحاء مصر [١]، وأخيرا ينتقل إلى الجامع الأزهر حيث الدراسة العليا والوصول إلى التخصص ، والذى كان يمثل نهاية المطاف لطلاب العلم حينذاك، وبما أن الأزهر يمكن اعتباره حينذاك موطنا للدراسة الدينية العالية ، كذلك يمكن اعتبار الكتاتيب موطنا للدراسة الدينية الأولية ، وكما ظل التعليم بالأزهر حرا طليقا لا يخضع لنظم أو قوانين ، ظل التعليم فى الكتاتيب حرا طليقا .[٢]

وبهذا كان الأزهر يمثل قمة التعليم أو أعلى مراحل التعليم، فلا يؤم حلقاته إلا من شذا عقله ، ومن كانت له معرفة تؤهله للاستفادة من الدراسة العالية التى كانت تعقد فيه، ولم يكن ذلك يعنى وجود المراحل التعليمية المتميزة، فقد كان الصبى المسلم يتلقى تعليمه الأولى فى الكتاب الذى غالبا أن يكون خارج المسجد فإذا انتهى بنجاح من تلقى هذه الطائفة من مبادئ العلوم فإنه حينئذ يلتحق فى المسجد بحلقة من الحلقات التى تدرس بها كتب سهلة التناوب غير معقدة ولا كثيرة التفاصيل، فإذا قطع فى هذا الدور شوطا موفقا استطاع إذا أن يلتحق بحلقات أخرى فى نفس المسجد أو مسجد آخر حيث يجلس إلى الشيوخ المشاهير الذين يدرسون كتبا عالية المستوى كثيرة التفاصيل والتعمق والإحاطة .

ومع ذلك كان المتعارف عليه بين طلبته وعلمائه أن الدراسة فيه كانت تنقسم إلى ثلاث مراحل: ابتدائية تدرس فيها الكتب السهلة على طائفة من صغار المشايخ ، وثانوية تدرس فيها الكتب المتوسطة على مشايخ أكثر كفاية من مشايخ المرحلة الأولى ، ومرحلة نهائية تدرس فيها أمهات الكتب على طائفة من جهابذة العلماء والمشايخ، إلا أنه لم يكن هناك تمييز واضح بين مرحلة وأخرى ولم يكن قياس المستوى الذى وصل إليه طالب ما سوى عدد السنين التى قضاها بالأزهر مقترنة بالكتب التى حضرها على مشايخه، بل لم يكن مقيدا بامتحانات سنوية .[٣]

---

(١) *مثل الجامع الأحمدى بطنطا، ومسجد أبى العباس بالإسكندرية، ومسجد دسوق بدسوق، ومسجد النور بدمياط.*

(٢) *أحمد عزت عبد الكريم : **تاريخ التعليم فى عصر محمد على** ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٣٨، ص١٠٣ .*

(٣) *على عبد الواحد وافى : **لمحة فى تاريخ الأزهر**، مرجع سابق، ص ص ٤٨-٤٩ .*

٥=الانتقال والتنقل الحر والمفتوح بين الحلقات التعليمية :

كان نظام التعليم يتيح قدرا كبيرا المرونة فقد كان من حق الطالب أن يختار أستاذه والمادة التى يدرسها والكتاب الذى يتعلم منه وكان الطالب إذا ما فرغ من دراسة الكتب الصغيرة وآنس من نفسه جواز الانتقال إلى ما هو أرقى منها ، انتقل من تلقاء نفسه — يدرس ما يشاء من مختلف العلوم والفنون – من حلقات المشايخ المدرسين للكتب المتوسطة إلى حلقات المشايخ المدرسين للكتب الكبرى، وهكذا حتى يتم دراسته فى الأزهر ويتصدر للتدريس (١).

٦= اتساع مجال الدراسة المتقدمة وتنوعها :

كان الأزهر يضم من الطلاب دائما العدد الكثير ، وذلك لاتساع مجال الدراسة فيه وتنوعها ، فكان مفتوحا للطلاب من كل مذهب ، كما كانت تدرس فيه العلوم الدينية وغير الدينية فضلا عن العلوم اللغوية (٢)، و لم يقف النشاط العلمى فيه عند هذا الحد بل أطرد تقدمه وتنوعت موضوعاته وكثرت فنونه وعلومه حتى أصبح الأزهر جامعة بمعنى الكلمة وقبلة العلماء المتبحرين والفلاسفة .

أما من حيث نظام الدراسة المتقدمة ، فكان يقوم فيه لكل مذهب من المذاهب الأربعة **عمد** معينة لا يجلس للتدريس بجانبها غيرهم ، فهذه عمد للشافعية وتلك للمالكية وأخرى للحنفية ورابعة للحنبلية ، وقد تخرج فى حلقات الدروس بهذه العمد أساطين العلماء ، إذ كان لهم نظرهم العميق فى المسائل العلمية وكان لهم اجتهادهم (٣).

٧= انعدام الشروط المقيدة للدراسة :

كانت الدراسة بالأزهر حرة ، تسير سيرا فطريا دون تقنين ، حيث كان الطالب يفد إلى رحابه بعد حفظ القرآن الكريم ***لا تحول بينه وبين رغبته فى طلب العلم شروط السن، ولا تقيد خطاه بمرحلة معينة من مراحل التعليم ، ولا عدد السنوات التى يقضيها فى الدراسة*** (٤)، إذ لم يكن به شروط مقيدة للدراسة مثل السن أو التفرغ و لا المدة المحددة لاجتياز مرحلة معينة .

أى أنه منذ صار الأزهر جامعة علمية سارت الدراسة فيه سيرا فطريا دون تقنين أو تعقيد ، فكان الطالب يفد إلى ساحته تحدوه الرغبة فى طلب العلم ، لا يصده عن رغبته قيود السن ، و لا يقف فى وجهه عدد السنوات التى قضاها فى الدرس ، أو غيره من القيود والشروط التى تحد وتمنع من الالتحاق بالدراسة .

(١) *الأزهر، مجمع البحوث الإسلامية : **الأزهر جامعا وجامعة، أو الأزهر فى ألف عام** ، مرجع سابق ، ص ٣١٦ .*

(٢) *سيدة إسماعيل الكاشف : **الجامع الأزهر ودوره فى نشر الثقافة العربية** ، مرجع سابق ، ص ٥٨ .*

(٣) ***الأزهر فى ١٢ عاما** : مرجع سابق ، ص ٧٦ .*

(٤) *المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى والتكنولوجيا : **معاهد الأزهر وجامعته فى السبعينيات** ، دراسة إحصائية ، سلسلة أخبار المجالس القومية المتخصصة ، الأمانة العامة ، عدد خاص أبريل ١٩٨٣ ، ص ٥ .*

٨- منع الإجازات بالفتيا والتدريس :

كان الطالب يتردد بالأزهر على من يشاء من الأساتذة، ينهل من فيض علمهم ما أراد من السنين، حتى إذا آنس من نفسه كفاية علمية انسلخ عن درس أستاذه ، وراح يعرض علمه على الطلاب فإذا وضحت مكانته العلمية ، وغصت بمقدرى العلم ، كانت سمته العلمية هى الشهادة التى نالها و التى تفتح له أفاقا فى الحياة الجديدة ، وكان ذلك بمثابة ***إجازة*** يصبح فيها فى عداد العلماء ، وإذا لم يظفر بالمكانة المنشودة ، ارتد إلى حلقة أستاذه حينا، ثم يعيد المحاولة من جديد حتى ينال ما يريده لنفسه من سمعة علمية (١).

وبعد إنشاء منصب شيخ الأزهر كان هو الذى يمنح على ضوء هذه السمعة العلمية إجازة تبيح لصاحبها التدريس أو الإفتاء أو القضاء ، حيث أصبح هو المرجع الأعلى للأستاذ والطالب فى كل الأمور ، وظل الأمر يسير على هذا النحو طليقا من أى قيد حتى تطلب الحال وضع قوانين لتنظيم سير الدراسة بالأزهر ، فكان أول قانون نظامى سنة ١٢٨٨هـ-١٨٧٢م، والذى بين المواد التى يجب دراستها للحصول على الشهادة العالمية والتى رتبت إلى ثلاث درجات – أولى وثانية وثالثة – واشترط أن يصدر بها براءة من ولى الأمر .

ولم يكن للأزهر قبل صدور هذا القانون شهادات دراسية تمنح لطلاب المساجد الأخرى الهم إلا الإجازة بالفتيا والتدريس والتى كانت لا تمنح إلا بناء على طلب يرسله العالم ***"طالب الإجازة"*** لأحد علماء الأزهر (٢)، ولقد لبثت هذه الإجازات مدى قرون من الزمان عنوان الإجادة والتفوق ،واستمر تداولها حتى العصر الحديث حين بدأت قوانين الإصلاح فى الأزهر.

ولقد ظل التعليم فى الأزهر على حاله هذا لفترة طويلة دون تغيير ثم ***كانت عصور النظم الدراسية بضوابطها وقيودها المعروفة*** فتوالى صدور القوانين التى ***يساير بها الأزهر حركة النظم التعليمية حوله*** فى أواخر القرن التاسع عشر فكانت الإصلاحات المتعاقبة ، وظهرت الآثار المتعددة لهذه القوانين ، وتم تنظيمه فى مراحل دراسية متتابعة تشابه غيرها فى النظم التعليمية الحديثة – ***بقيودها الدراسية*** –ولكنها تختلف عنها فى الفلسفة والطريقة والأهداف ، فى المضمون والكتب والمناهج ، فالتعليم الأزهرى ذو طابع إسلامى خاص بمعاهده وكلياته (٣).

(١) ***الأزهر فى ١٢ عاما*** : مرجع سابق ، ص ٧٥.

(٢) سيدة إسماعيل الكاشف : ***الجامع الأزهر ودوره فى نشر الثقافة العربية*** ، مرجع سابق ،ص.ص ٧١، ٧٢.

(٣) أحمد شلبى : ***تاريخ المناهج الإسلامية*** ، مرجع سابق ، ص ٩٧.

سادسا : تحليل مقارن للانسيابية فى التعليم بين التقاليد العربية الإسلامية والواقع التعليمى المصرى الراهن :

لعل أكبر خطأ يمكن أن يقع فيه الدارس لمظاهر الديمقراطية فى نظم التعليم الإسلامى ، أو لغيرها من مظاهر الانسيابية والمرونة فى التعليم أن يفصل دراسة هذه النظم عن الروح الإسلامية العامة التى حكمت هذا المجتمع الإسلامى عبر مراحل تاريخه الطويل ، وما طرأ على تلك الروح الإسلامية من نمو وقوة ، أو ما اعتراها بعد ذلك من فتور وضمور، إذ لا ينبغى أن نتجاهل هذه الروح التى كانت توجه نظم التعليم سواء من حيث مؤسساتها أو أهدافها أو محتواها أو شكلها ، والتى كانت تمجد العلم والعلماء ، وتدعوا إلى المزيد من العلم والمعرفة وتجعل الحياة الإسلامية كلها تقوم على العلم ، ولذا كانت المجتمعات الإسلامية بحق ***مجتمع العلماء والمتعلمين*** .

فمحبة العلم وطلبه والشوق إليه ، وحرية الفكر والبحث العلمى هى الخيوط العامة التى نسجت منها الحياة العقلية والتربوية فى عصور الازدهار الإسلامى ،أنتجت معها ***نظم تعليمية مرنة*** لا تتبع أطرا محددة لا من حيث الزمان ولا من حيث المكان ولا من حيث المنهج ، تسعى لتحقيق حرية الإنسان التعليمية المطلقة، التى تندرج تحتها حرية اختياره لأسلوب التعلم ولأسلوب تلقى المعرفة ،ثم الوسائل المتنوعة التى استخدمت فى تنفيذ هذه الحرية الاختيارية كما يلى :

- ***كان التعليم اختياريا***، سواء للصغار أو المبتدئين من الكبار أو الكبار المتبحرين فى العلوم، قائما على الرغبة الذاتية والتطوع بالنسبة للدارسين والمدرسين ، وفى الوقت نفسه كان مجانيا فى معظم حالاته،كفل نظام الوقف الإنفاق عليه وعلى المتعلمين، بينما نظامنا التعليمى الرسمى يعانى من الإجبار والإلزام للمتعلمين فى العديد من مراحله ومواده الدراسية.
- ***حرية العلم والتعليم كانت قائمة بدون حدود وبدون وصاية من أحد*** ، وكان من ثمراتها أن متلقى العلم كان يكيف تلقيه للعلم حسب ظروفه وحسب ميوله فى أن يأتى إلى الحلقات التعليمية بصورة اختيارية وعندما تتاح له الفرصة، بينما الآن يتدفق الجميع إلى التعليم بصورة جماعية وفى وقت واحد محدد للجميع دون إعطاء فرصة للجمع بين التعليم والعمل أو التناوب بينهما.
- ***المتعلم يختار ما يريد أن – يتعلم– يتلقاه من فروع المعرفة*** ، وله أيضا حرية الاختيار فى أن يتلقى هذه المادة أو تلك عن طريق الأستاذ الذى يرتاح له نفسيا أو سلوكيا أو عاطفيا.
- ***كانت نظم تعليمية تعتمد لا تعتمد على التلقين*** كغيرها من النظم التعليمية الراهنة ، بل اعتمدت على التثقيف والتعليم الذاتى، والرحلة فى طلب العلم وهى نظم لا تعتمد على الامتحانات بل على قدرة الطالب على الدرس والاستيعاب .

- ***لا توجد أية حدود أو قيود رسمية تحد من حركة الطلاب***، فالطالب يبدأ تعليمه عندما يريد ، وفى السن الذى يريد ، ويظل ينهل من العلوم والمعارف كما يشاء ويتنقل من حلقات العلم هنا أوهناك وقد يترك بلده إلى مكان آخر فى طلب العلم ولا تفرض عليه علوم محددة، أو أن ينتهى منها فى سنوات معلومة ، وفى مكان محدد ، بل يمضى الطالب فى تعلمه بقدر ما يتمكن من العلم ، وقد تأخذ صورة هذا التمكن أن يعطيه شيخه إجازة فى علم أو أكثر من العلوم أو أن يصبح صاحب حلقة من الحلقات إلى غير ذلك من صور التمكن فى العلم ، وقد نجد الطالب قد وصل إلى الأستاذية فى علم من العلوم بينما يجلس مجلس التلميذ فى علم آخر ، وقد يتابع دروسه فى المسجد ثم ينتقل إلى المدرسة أو المرصد أو البيمارستانات ، وقد يغادر موطنه إلى مكان آخر ، وهكذا بدون قيود ***إلا قيد العلم وحبه والإقبال عليه***.
- ***العلماء والمدرسين والشيوخ لا يقلون حرية عن الطلاب*** ، فهم الذين يحددون المواد والمناهج المقررة ، ووقت الدراسة وعدد المحاضرات أو الجلسات التى يعطونها وهم الذين يعطون الطلاب إجازاتهم العلمية .
- ***إدارة التعليم ، إدارة تلقائية مرنة*** عن طريق ناظر الوقف أو من ينال ثقة الناس فى إدارته ، إدارة ذات نظم سهلة مبسطة فيها كثير من الاحترام لشخصية كلا من العالم والمتعلم .
- ***التعليم فى الأزهر والكتاتيب الملحقة به كان نموذجا تطبيقيا مثاليا لنظام الحلقات التعليمى الاختيارى وما اتسم به من مظاهر مرونة وانسيابية متعددة .***

ولن نقرأ قليلا أو كثيرا عن هذه النظم ومظاهر الحرية والانسياب والمرونة بها إلا وأعجبنا بهذا الجو الديمقراطى وتلك الحرية العلمية الكاملة التى تمتع بها الطلاب والمعلمون فى عصور ازدهارنا الإسلامى، وهى حرية قلما يستطيع أن يتمتع بها الطلاب والمعلمون الآن فى ظل نظم تعليمية تحد من حرية الطالب والمعلم فى كثير من الأمور كما وضح من الفصل السابق:

١- إذا كانت حرية التعليم والتعلم فى التقاليد العربية والإسلامية قد حققت مجتمع المتعلمين المعلمين ، نجد أن نظم التعليم المصرى الراهنة تعانى من الإجبار والإرغام للمتعلمين وتخنق فرص الالتحاق أمامهم ، ومن ثم التقليل من قدرة المجتمع المصرى على الإبداع والابتكار .

٢- إذا كانت نظم التعليم عندنا قديما مفتوحة على مصراعيها ، نجد أن نظمنا التعليمية الراهنة تعانى من بعض الأبواب المغلقة فى وجه بعض الدبلومات والشهادات.

٣- إذا كانت نظم التعليم قديما تتيح حرية الانسياب والمرونة بين مواصلة التعليم أو الانقطاع عنه لفترة ثم العودة مرة ومرات أخرى دون إهدار للحق الدائم فى التعليم والتعلم وبحيث تكون مؤسسات التعليم مراكز إشعاع ، يلاحظ أن المتعلم المصرى الآن ذو اتجاه واحد فقط هو تعليم - منقطع الصلة بالحياة خارج المدرسة إلى حد ما - ثم

عمل والتحاق بالوظيفة ، يعانى من الجمود الظاهر فى هذه القضية الهامة، والتى تـــؤدى بالبعض إلى جب من الفراغ السلبى القابل للتفجير .

٤- بالرغم من أن نظم التعليم قديما كانت تتصف بالمساواة التامة والمطلقـــة بـــين كافـــة الجنسيات والطبقات ، يلاحظ أن نظمنا الراهنة تعانى من التحيز لبعض الفئات والمناطق مما يحول بينها وبين العدالة الحقيقة فى أحيان كثيرة.

٥- إذا كان الإقبال على طلب العلم وتحصيله فى الماضى كان لذات العلم وحب المعرفـــة والاستزادة ، يلاحظ أن نظمنا التعليمية الراهنة هى المسئولة بصفة عامة عن ما يســـمى الآن بمرض الشهادات وتسعيرها ،ومن ثم تقسيم الناس تبعا لانجـــازاتهم العلميـــة ومـــا يحملونه من شهادات ودبلومات.

٦- فى الوقت الذى أدت فيه سبل التعليم المفتوحة والميسرة لجميع أبناء المجتمع المســـلم إلى تحقيق مجتمع العلم والعلماء ، يلاحظ أن النظم التعليمية الراهنة أدت وتؤدى إلى إحداث بعض من الفجوات والسدود والقيود ضد المجتمع المصرى المعلم المتعلم، متمثلا ذلـــك فى الشهادة ونوعيتها ودرجتها العامة وسنة الحصول عليها ومـــدى إرتباطـــها بالدراســـة اللاحقة، والجمود فى أعمار المقبولين وغيرها من القيود والحواجز والسدود.

٧- فى الوقت الذى لم تكن فيه أية صورة من صور التشعيب فى التعليم بالتقاليد العربيـــة والإسلامية تحد من فرص الحراك والتحرك للمتعلم ، يلاحظ أنه مازالت نظمنا التعليميـة تعانى من التشعيب والجمود فى الانتقال والتنقل بـــين هـــذه الشـــعب ذات الحواجـــز الصارمة.

٨- بينما كانت مسارات التعليم قديما مرنة تتيح الفرص المتعددة للحراك والتحرك الأفقـــى والرأسى طبقا لقدرات المتعلم ، يلاحظ أن نظمنا التعليمية الراهنة تعانى من عدم وجـــود هذه المسارات التعليمية المرنة وكثرة الحواجز والعقبات.

٩- فى مقابل القيود والإجبار على دراسة بعض المواد الدراسية فى أوقات محددة والدخـول إلى امتحاناتها فى أوقات محددة أيضا، وعدم وجود أى دور لإشراك الطلاب فى تنســـيق العملية التعليمية، وتوحيد طول مدة اليوم التعليمى والعام الدراسى لجميع المتعلمـــين فى فرقة ما ، يلاحظ أنه فى التقاليد العربية الإسلامية كان بوسع الطالب أن يحدد أوقـــات المحاضرات والدروس وعددها ، وكان يتم الأخذ بنظام الإسراع للطلبة الراغبي فيه.

١٠- تتشابه نظمنا التعليمية الراهنة بالنظم التعليمية فى التقاليد العربية الإســـلامية فى إتاحة الفرصة لبعض الراغبين فى الاستزادة من المعرفة والمتمثل فى نظـــام الطـــلاب المستمعين فتتيح لهم ولغيرهم الحضور كمستمعين وذلك كأحد مظاهر المرونة.

وإذا كان هذا هو الحال فى نظم التعليم والتعلم بالتقاليد العربية الإسلامية وأوجه مقارنتـــها بالوضع الراهن فى نظم التعليم والتعلم فى مصر وبخاصة التعليم النظامى ، فما هو الموقف الراهـــن أيضا بالنسبة لدول العالم المتقدم من حيث هذه القضية وخاصة تجربة كل من الولايات المتحـــدة الأمريكية وألمانيا واليابان ، وهذا ما سوف تتناوله الدراسة فى الفصل التالى .